

مشاركة يهود الأندلس الاقتصادية في عصر المرابطين ودورهم في نقل المعرفة الإسلامية إلى الغرب (الترجمة).

د. محمد الأمين بلغيث

جامعة الجزائر

أولاً: دولة المرابطين الدعوة و التكوين

تكونت دولة المرابطين في الطرف الغربي الجنوبي من إفريقيا الغربية، بداية من سنة 429هـ/1037م وهي بداية التاريخ الكرونولوجي المؤسس لحيل المرابطين إلى غاية تأسيس عاصمة جديدة مراكش سنة 462هـ/1070م حيث بدأت مرحلة ثانية من التوسع نحو الشمال للقضاء على دويلات الطوائف ووصلت في نهاية 484هـ/1091م إلى توحيد المنطقة الواقعة ما بين بجاية شرقاً إلى ساحل المحيط غرباً ومن شمال جبال اليرانس شمالاً إلى جنوب غرب تمبوكتو وكومبي صالح جنوباً وقد بلغت أقصى اتساعها في الجنوب الشرقي إلى شمال غرب تشاد قريباً من الحدود الليبية الحالية كما جاء في آخر الدراسات.

وتكونت الدولة المرابطية في منطقة صحراوية هامة في العلاقات بين الصحراء الغربية والشمال الغربي للبحر الأبيض المتوسط وهي المرحلة الحساسة التي اشتد فيها الصراع على المواد الأولية المعدنية كالذهب والفضة وغيرها من النفائس وكذلك التنافس على الملح الطبيعي والمعدني وجميع أنواع النفائس المعروفة في إفريقيا الغربية.

*مداخلة بالمفتى المغاربي حول الأقليات الدينية في المغرب من الفتح إلى نهاية العهد العثماني، 5-6 ماي 2003م.

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.

والدعوة المرابطية دعوة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قام بها الداعية عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين كما يلقيه القدماء حيث قامت هذه الدعوة في مرحلة التكوين بتكوين جماعة مؤمنة برسالة الفقيه المالكي سالف الذكر، ويمكن تقسيم مرحلة التكوين إلى مرحلتين:

1. فترة التكوين المذهبي والعسكري في مؤسسة الرباط التي كونها الداعية المصلح ويمكن أن نحدد مرحلة التكوين المذهبي والعسكري في مدة زمنية ما بين سبعة إلى اثني عشر سنة، وهي مدة كانت كافية لتكوين ما يزيد عن ثلاثة آلاف مرابط تكويناً مذهبياً وعسكرياً.

2. مرحلة تطبيق تعاليم عبد الله بن ياسين: بدأت هذه الفترة بخروج الملتزمين من عزلتهم في أقصى الجنوب الغربي من موريطانيا الحالية وأصبحوا على حد تعبير أحد المؤرخين "آلة حرب".

وقد بدأت "آلة الحرب" عملها من خلال توحيد قبائل غمارة و نكور لتصل إلى طنجة وتوحيد المغرب الأقصى بعد القضاء على الشيعة البجلية وعلى دولة برغواطة في تامسنا إثماء ممالك المغرب الأقصى، وبعد ذلك اتجهت القوات المرابطية شرقاً فتمكنت من السيطرة على تلمسان (473هـ/1079م) وهران جزائر بني مرزغنة بل وصلت إلى حدود بجاية وفي هذه اللحظة توغل في المغرب الأوسط حتى بلغ وهران كما سلف وجبال ونشريس وعقب ذلك استسلمت القبائل الأخرى صفواً دون أن يخوض في ذلك غزوة أو يتجشم فيه مشقة فخلا الجو للمرابطين للتفكير في فتح الأندلس التي تمت لهم بعد معركة الرلاقة الشهيرة في رجب 479 هـ/ماي 1086م.

ثانياً: دولة المرابطين ومرحلة السقوط

لا توجد دولة في فضاء التاريخ الإسلامي قد لقيت من الإجحاف والنسيان كدولتي الأمويين والمرابطين لسبب بسيط، هو أن الدولتين من ضحايا دول مذهبية قوية فالدولة العباسية التي أسقطت دولة الأمويين استطاعت طمس تاريخ بني أمية

وكتبت تاريخهم كما يحلو للمؤرخ الرسمي العباسي، كما أن دولة المرابطين كانت ضحية لدعوة أعلنت الحرب النفسية على المرابطين فكفرتهم وحمّلتهم أوزار كل مآسي الغرب الإسلامي مع العلم وللحقيقة التاريخية أن أجيال المرابطين من عصبية ملتونة ومسوفة وجدالة قد ضحوا بكل طاقاتهم البشرية من أجل حماية الأندلس وحدها التي كانت على وشك السقوط مبكراً في يد دعاة الاسترداد المسيحي للمنطقة وقد قدر لهذه الدولة حماية الغرب الإسلامي طيلة خمسة قرون كاملة إلا أن المدرسة الإستشراقية التي صنعت تاريخ المنطقة قد وجدت المادة الأدبية الموحدة جاهزة لتشوّه تاريخ المنطقة تشويهاً يصعب إصلاح ما أفسدته أيدي هؤلاء أمام الدعاية الموحدة القوية.

انتهت الدولة المرابطية بسقوط مراكش سنة 541هـ/1147م في يوم مراكش الحزين، ولا يتحدث المؤرخون عن وكلائهم (بني غانية) على جزر البليار إلا في إطار الصراع داخل الدولة الموحدة.

وإذا ما تتبعنا أحوال اليهود في الأندلس في عهد المرابطين فإن الدراسات اليهودية تقول: إنهم عاشوا في رخاء نتيجة الازدهار الاقتصادي الشامل للبلاد، ولذلك بلغوا درجة كبيرة من الثراء مما أدى إلى مساهمتهم في إغناء الحياة الأدبية والفكرية والاقتصادية¹. وتعب ملاحظة أن بروز اليهود في الحضارة العربية الحديثة، وتفاعلهم معها، لم يتم إلا بعد أتمت علمتتهم وتخلوا عن أية هوية دينية يهودية، على عكس النجاح الذي حققوه في إطار الحضارة العربية الإسلامية، إذ حققوه باعتبارهم يهوداً ذوي هوية دينية مستقلة، ولكن تجدر الإشارة إلى أن يهود العالم الإسلامي لم تظهر منهم شخصيات فكرية ذات ثقل كبير على عكس يهود الأندلس الذين برز فيهم يهودا اللاوي في عهد المرابطين وموسى بن ميمون (530هـ/601هـ-1135-1204م)

¹ مسعود كسواني، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م، ص: 307. (الملحق رقم: 8). إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، 1998م، ص: 108.

في عهد الموحدين، كما أصبح ابن شلوخة اليهودي خازن المال بسجلماسة في عهد الخلافة الموحدية، كما أن صمويل الفاسي حبر مراكش الذي اعتنق المسيحية أيام المرابطين، وسمي صومويل ماروشيتانيوس (*Semmel Marochitanus*)، قد شغل منصبا ذا شأن في بيعة سجلماسة² وغيرهم من مفكرين وشعراء ووجهاء، ولم يؤسس يهود الأندلس مدارسهم المستقلة إلا بعد تعريهم، وبعد أن أخذت نخبهم تنتشر الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي كانت التقاليد الفكرية داخل حلقاتهم العلمية تسمح لهم بالانفتاح الكامل على هذه الحضارة، حيث أمكنهم الإبداع من داخلها، فأتتجوا أهم أدبياتهم الفكرية والأدبية التي تحتل مكان الصدارة حتى العصر الحديث، كما أشار المتصفون من الدارسين اليهود في فهمهم لهذه الإشكالية المهمة مثل حاييم الزعفراني وسلمون جويتاين³ وتدهور وضعهم بتدهور العالم الإسلامي⁴ ولا يمكن فهم التراث الديني اليهودي في هذه المرحلة إلا بالعودة إلى التراث الإسلامي والفلسفي والديني، ويمكن القول أن تفاعل الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى، لأنها أعطت لهم وسيلة الحياة ومنهج النقد وفهم التطورات الإنسانية، خلال العصور الوسطى، فخرجوا من دوائرهم الضيقة إلى عالم أرحب، حيث الحرية والاحترام لحامل العلم⁵، فقد ساهموا في الإدارة إلى جانب الحياة الفكرية بحرية تامة إلا

² عبد العزيز بن عبد الله الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية "معلمة الصحراء" الرباط، 1976م.

ص: 121. نقلا عن الحبيب الخنجاتي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة عاصمة بني مدرار، ص: 159.

³ David Gonzalo Maeso, *Los Arabes Maestros de los Judios en la espana medieval*

(*Ensayos sobre la filosofia en al-Andalus Una Aproximacion Ensayos Sobre la Filosofia en Al-Andalus*, Autores Textos Y Temas Filosofia, Coleccion Dirigida Por Jaume Mascaro n° 29, Anthropos Edotoral del hombre, Printed in Spain 1990.) p:166-177.

⁴ عسبد الوهاب محمد المسري، موسوعة اليهود واليهودية (نموذج تفسيري جديد)، المجلد الرابع، بيروت، دار الشروق، 1999م، ص: 247. أوليفا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، الرياض، مكتبة العبيكان، 2003، ص: 155.

⁵ المسري، المرجع السابق، ص: 247. كواني مسعود، المرجع السابق، ص: 295.

D.G.Maeso, *Los Arabes, Maestros de los Judios en la espana medieval*. p:166. Alvarez,yBenito, y Plaza. *Guia del toledo judio*, Alvarez (Ana Maria lopez) Ricardo

ما ذكر ابن عذارى وهو يتحدث عن أبي حفص عمر يئالة الذي تولى غرناطة مدة أربعة أشهر فقط وعزل عنها (جمادى الأولى 522هـ/1128م) وهو أحد أبناء علي بن يوسف، الذي كان في إقليم الشرق، وقد أساء السيرة مع معاهدة غرناطة، منتقماً منهم، مما فعلوه بالمسلمين، لما تحالفوا مع رذمير، وقد تجاوز سلطاته يقول ابن عذارى فلما وصل إلى حضرة أمير المسلمين علي بن يوسف أشار بذكره إليه معاهدة غرناطة، فأمر بمحضرة معهم في مجلس نظره، فأدلوها بحجج في ظلمه فسجنه لهم حتى أنصفهم من ظلامتهم ثم بعد ذلك أصابه طاعون كان سبب حتفه، وكان هذا يئالة (عمر) إذا عاقب الجاني اعتدى عليه، وإذا أتى بالبريء لم يسمع منه، وكان له كاتب يهودي الأعراق، والأخلاق يبغض الناس ويبغضونه أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به، فبدأ بشؤمه أميره يئالة، فجرّ إليه العزل وأورده السجن وأداه إلى الهلكة، وغدا شؤمه عليه فاستوصل ماله، وهبت داره وطلب ليقع به ففر وهلك بعد ذلك، وكان أشقر أزرق ذميم الخلق في وجهه نحال⁶.

ومن جملة رجال أبي حفص عمر يئالة ابن أمير المسلمين علي بن يوسف، رجل زيه التلثيم، نشأ بمدينة طنجة وتآدب بإشبيلية، يعرف بموسى بن مفروج، له خط بارع وأدب صالح ونفوذ في الحساب، ألقى إليه الأمير أبو حفص جميع الأعمال وأوطأه عقب الرجال، فاستبد بالأمر واستقل، فندس إليه يهودي يتحلل الطب سقاه يوم الأربعاء، ودفن يوم الجمعة عام 522هـ/1128م⁷. فقد كان اليهود كعادتهم متفوقين على أنفسهم في أحياء خاصة، كقرطبة فيقولون عن مدخله باب اليهود أو حي اليهود وقد سمي: باب الهدى بعد أن استقبحو باب اليهود وراعوا تجانس لفظي اليهود والهدى،

Izquierdo Benito, Santiago Palomero, Guía del Toledo Judío, Fotografías Antonio Parejay Carlos Villasante, 1990, p. 27.

⁶ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1980-ص: 77. د. عصمت عبد اللطيف دنش، زيارة الأندلسيين لبلاد المرابطين بمراكش، (أضواء جديدة على المرابطين)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991-ص: 111.

⁷ ابن عذارى، المصدر نفسه، ص: 76.

وكذلك الشأن في حي اليهود بطليطلة وسرقسطة⁸ وكانوا يحتكرون التجارة، وفي بعض الأحيان السلطة وإذا وجدوا من ينافسهم في ذلك عملوا على التخلص منه بطريقة خبيثة، وهذا ما رأيناه عندما قوى نفوذ موسى بن مفرج المثلث في غرناطة فعمد أحد أطباء اليهود إلى دس السم له فأرداه صريعاً، وكان نفوذ اليهود بغرناطة كبيراً حتى كانوا يقولون عنها مدينة اليهود⁹ وموضوع اليهود في عهد المرابطين فيه نقاشات كبيرة بين الباحثين، ففي دراسة " كريتر " يقول: إن يهود الأندلس عاشوا بين قوتين متصارعتين، دولة المرابطين المتعصبة ودولة الفونسو ومملكة قشتالة وأراغون، إلا أن هذا لا يمنع الباحث نفسه إلى التصريح بأن كبار اليهود، الشعراء والأطباء والذين اشتغلوا بالفلسفة والتنجيم والرياضيات، عاشوا حياة مريحة بل وفيهم من تلقب بلقب وزير في عصر المرابطين ومنهم: " الشاعر أبو يعقوب سليمان بن المعلم " الذي حمل صفة الأمير والوزير، والثاني أبو الحسن أبراهام بن مير بن كامنيال، الذي كانت حمايته لأهل دينه من الظروف الطارئة تمتد لكل اليهود من مصر إلى بلاد العراق، وأبو إسحاق بن مهاجر، ومنهم الوزير سليمان بن فاروسال الذي اغتيل في 2 ماي 1108م في مهمة دبلوماسية إلى الممالك الأسبانية بعد معركة أفليش (Ucles) الشهيرة التي أحرز فيها المرابطون نصراً مؤزراً على جيوش قشتالة¹⁰. وبالرغم من هذا يقول فيليب حتى

⁸ ليفي بروفنسال، ملاحظات عن أسماء المواقع الإسبانية المغربية (أسماء البوابات، باب الشريعة، والشريعة في مدن المغرب الإسلامي في العصور الوسطى (الإسلام في المغرب والأندلس)، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة الدكتور لطفي عبد البديع، الفجالة، القاهرة، دار نضرة مصر للطبع والنشر (دون تاريخ). ص: 65.

⁹ إيسن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص: 76-77. سلامة محمد سلمان الحرفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، (دراسة سياسية وحضارية) بيروت دار الندوة الجديدة، 1405هـ/1985م. ص: 82. رينهارت دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، القاهرة، 1933م. ص: 41. أحمد شحلان، تأثير الآداب العربية في الآداب العبرية، (دراسات مغربية مهداة إلى المفكر المغربي محمد عزيز الحياي)، ص: 224.

¹⁰ انظر : H. Graetz, *Les Juifs d'Espagne (945-1205)*, Traduit de l'allemand par Georges : 191-192.

وكارل بروكلمان بأن أهل الذمة قد عاشوا في كنف المرابطين في جور وظلم واضطهاد¹¹.

لقد ترعرعت الثقافة اليهودية في دار الإسلام، وتطعمت بجوهر الثقافة الإسلامية فكراً وتأليفاً باحتكاكها بفضائل العلماء وكبريات الحواضر الإسلامية في غرناطة وقرطبة وإشبيلية وسرقسطة، وكانت عاصمتهم ومحجهم ليشانة بضواحي قرطبة¹². ومن مظاهر الحرية التي تمتع بها يهود الأندلس في عهد المرابطين، هو انتشار المراكز الدينية في الحواضر الأندلسية المرابطية¹³، خاصة في عهد علي بن يوسف الذي التزم بأحكام الشريعة مع أهل الذمة حتى نعته أحدهم بأنه: "أحد حماة اليهود".

لما طلب أهل فاس وأعيانها توسعة مسجد القرويين أقرت السلطة وجهاء المدينة على طلبهم فتوج علي بن يوسف أعماله العمرانية في الغرب الإسلامي بتوسعة مسجد القرويين، والتي أنفق فيها 80 ألف دينار مرابطية، وذلك بإضافة 1850م² للمسجد، ثم شرع في شراء البيوت المجاورة للمسجد والتي تدخل ضمن التوسعة، وكان معظمها لليهود، فاشتراها منهم بأثمانها دون بخس¹⁴ "ولا شك أن روح التسامح التي ميزت المرابطين من الناحية الدينية تخالف المعاملة القاسية التي عرفها المسلمون على أيدي

سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، بيروت، دار النهضة العربية، 1405هـ/1985م، ص: 177.

¹¹ فيليب حقي، تاريخ العرب، ترجمة ميروك نافع، الطبعة الثالثة، ص: 704.

كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومتر البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، مارس 1993م، ط. 12، ص: 322-323. محمد الأمين بلغيت، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، أطروحة دكتوراه الدولة مخطوطة، إشراف عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2002-2003م، المجلد الثاني، ص: 567.

¹² كواقي، المرجع السابق، ص: 224. إبراهيم عمود زعرور، علي سليمان أحمد، اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، دمشق، دار المستقبل، 1999م، ص: 169.

¹³ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، القرن 8-11م/ 2-5هـ ترجمة وتعليق إسماعيل، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، ص: 119.

¹⁴ الهري، المرجع السابق، ص: 376-377.

العناصر اليهودية المتسلطة في ركاب النصارى على إثر سقوط بلنسية في يد " السيد "، حيث ارتكبوا أبشع الصور مع سكان بلنسية مساعدين بذلك المعتدي، كل هذه القرائن تقوم حجة وتنفي ادعاء من فسر هجرة المفكرين اليهود نحو الممالك النصرانية بأنها نتيجة التعصب الديني الذي أبداه المرابطون¹⁵، فلو كانت كما زعمت هذه الدعايات لما فتحت أمامهم مجالات الكتابة بحرية تامة والأبحاث في ديانتهم من الدلائل القاطعة على ما تمتع به اليهود من حرية العقيدة والفكر في ظل الحكم المرابطي هو ظهور العديد من المفكرين والعلماء الذين طوروا الثقافة والفكر اليهودي، ومارسوا أنشطتهم دون معارضة من السلطة القائمة، ولهذا ظهر في عصر المرابطين ألمع الأسماء اليهودية وهو ما بينته تراجم أشهر علماء اليهود في هذا العصر ويأتي على رأسهم؛ إسحاق الفاسي (ت. 497هـ/1103م)¹⁶ الذي هاجر من قلعة بني حماد واستقر بالأندلس سنة 481هـ/1088م، كما أن عدداً كبيراً من اليهود آثروا الاستيطان في مدن أندلسية أو مغربية¹⁷. والسموأل وأبو الحسن يهودا هاليقي أو اللاوي (478-544هـ/1085-1148) إلى نقد الفلسفة اليونانية ونقد الأديان الأخرى. وقد اختار له ثلاثة من العلماء أي أصحاب الملل الثلاث، الأول مسيحي، والثاني مسلم، والثالث يهودي وعرض كل واحد عقيدته على ملك الهند وهو أشبه بمنهج ابن كمونة في تفضيل دينه على بقية

¹⁵ -بروكلمان، المرجع السابق، ص: 322.

¹⁶ -وعد إسحاق الفاسي عام 1013 بقلعة بني حماد بالمغرب الأوسط، وكان يدير مركزاً يهودياً كبيراً بغلس البالي إلى غاية استقراره بالأندلس في عصر المرابطين لمنافسة كبار أسياد اليهود الأندلسيين في غرناطة وقرطبة وألبانة. وأما شويح الفاسي فقد وضع قاموساً عبرياً ومباحث قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية وفي هذا العصر كتب داود بن إبراهيم الفاسي معجماً يسمى "جامع الألفاظ" وضعه لتفسير وشرح مفردات التوراة. يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين الجزء الثاني، ترجمة محمد عبد الله عنان، مصر، مؤسسة الخانجي، 1958 م. ط. 2، ص: 256. عطا عسلي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى، في عهد المرينيين والوطاسيين، دمشق، دار الكلمة، دار الشفيق، للطباعة والنشر والتوزيع، 1999 م. ص: 194.

Graetz, *op. cit.*, p. 184. Zafarani, *op. cit.*, p. 24.

Sloush(N), *Etude sur l'histoire des juifs du Maroc*, Archives Marocaines, Vol. 4. ¹⁷

الملل الأخرى، وانتهى الجدل بين الملل الثلاث باعتراف الملك لملة اليهودي¹⁸. وبغض النظر عن مغزى القصة، فإن العصر؛ عصر الجدل الديني بين أصحاب الديانات السماوية في كل الرقعة الإسلامية. ومن أشهر علماء اليهود في عصر المرابطين موسى بن يعقوب بن عزرة المولود بغرناطة بين سنوات 1055 و1060م¹⁹ لعائلة يهودية غنية عريقة، كان ابن عزرة عارفاً بالتوراة والآداب اليهودية على اختلافها دينية وأدبية وشعرية، عارفاً باللغة والأدب العربيين خصوصاً وتاريخاً، شديد الاهتمام بالفلسفة اليهودية والإسلامية، مطلعاً على المصادر اليونانية المتداولة بين الأندلسيين، ومن أساتذته إسحق بن غياث رئيس مدرسة أليسانة. قضى موسى بن يعقوب بن عزرة حياته بغرناطة، فنهل من معارفها واحتلظ بذوي المعرفة والآداب والشعر، إلى أن دخل المرابطون المدينة عام 1090م، فغادرها أسر يهودية كثيرة ومن بينهم أسرته وإخوته كلهم وبقي هو بها، إلا أن حاله تغير فاعتزل الناس وابتعد حتى عن أقربهم إليه وهم أبناءه، وبقي على حاله إلى أن غادر غرناطة إلى الأندلس المسيحية عام 1095م، ليلقي عصا الرحلة والترحال هناك؛ فظل بها طوال أربعين سنة يعيش الوحدة والضياع والفقر، ويردد ذكرى أيامه الزاهرة بغرناطة، ويتأسف على المنهل العذب الذي تركه هناك، إذ يشعر أنه بين أقوام جهال متحججين مرآتين²⁰. "وازداد حزن موسى بن يعقوب بن عزرة مع تقدمه في السن وبعد ما مات أحد أبنائه، كما تنكر له أخوه يوسف الذي كان يعتمد عليه في عيشه، ولم يبق أولاده بواجبهم إلا بعض الأغنياء من أبناء غرناطة الذين قاسموه منفاه، والغريب أنه رضي بهذه الحال مع أنه كان بإمكانه العودة إلى مدينته غرناطة التي أحبها، والتي تقول الدراسات اليهودية إن يوسف بن

¹⁸ كواقي، المرجع السابق، ص: 204.

¹⁹ Haim Zafaran, *Traditions poétiques et musicales juives en Occident*

musulman, Paris; éditions Unesco, éditions Stavit, 1998, p.85

²⁰ أحمد شحلان، من الأدب العربي-العبري (أبو هرون موسى بن يعقوب بن عزرة وكتابه المحاضرة والمذاكرة) (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، العدد العاشر، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1984م، ص: 67.

إبراهيم محمود زعرور، علي سليمان أحمد، المرجع السابق، ص: 132.

ناشقين قد عوضهم ما فقدوه في الكائنة والثورة التي أدت إلى مجزرة بغرناطة الزيرية في 09 من صفر سنة 459هـ/30 ديسمبر 1066م بعد قصيدة العابد أبي إسحاق الألبيري السياسية²¹، كما ذهب إلى ذلك عبد الله الزيري في مذكراته، وقد يكون عدم عودة ابن عزرة لغزاً في حياته إلى أن توفي في العقد الرابع بعد الألف والمائة للميلاد، كما دلت على ذلك آخر أشعاره التي حملت سنوات 1135 أو 1138م²² وظل ابن عزرة يحافظ على تراثه وثقافته العربية طوال منفاه بأسبانيا المسيحية، حيث يقول عن نفسه: "ما رماني به الدهر في آخر العمر من الاغتراب الطويل والاكتئاب المتصل في أفق بعيد وثرع سحيق، فأنا مسجون في حبس بل مدفون في رمس"²³. ويبدو أن ابن عزرة لم يعد إلى غرناطة ونحن نشاطر الباحث القدير أحمد شحلان الذي اعتمد أشعاره ورسائله حجة لتسطير حياة هذا الأديب المفكر الذي عاش في هذا العصر مجال الرسالة أما الباحث فرنانديز فيرى أنه قد عاد إلى غرناطة ورفض العروض التي قدمها له يهود إستيلة (*Estella*) للقدوم إليها واستيطانها تحت رعاية الفونسو المحارب²⁴. ترك ابن عزرة ثروة شعرية ودراسات هامة بالعربية ولكن بالحروف العبرية كما هي عادة الأدب العربي العبري، وله من الآثار ديوان شعر، على طريقة ببحور الخليل بن أحمد الفراهيدي، وبه ما يقارب مائتي وستين قصيدة، تتوزع على أغراض شتى الغزل، الخمريات، الشكوى، العشق، ويتكون هذا الديوان كما يقول الباحث أحمد شحلان من ستة آلاف بيت شعر، وله مجموعة شعرية ثانية تتكون من خمس عشرة قصيدة في مواضيع متعددة، ومجموعة أشعار غنائية ثالثة، وأما في الأبحاث والدراسات، فقد ترك دراسة

²¹ عبد الله الزيري، مذكرات الأمير عبد الله، المسماة بالتيان، تحقيق ونشر آلفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1955م، ص: 54. عز الدين أحمد موسى.

عز الدين عمرو موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، القاهرة، دار الشروق، 1983م، ص: 112.

²² أحمد شحلان، المرجع السابق، ص: 67.

²³ إبراهيم زعور، المرجع السابق، ص: 132.

²⁴ Fernández, *Les juifs espagnoles au moyen âge*, Paris, Gallimard, 1983. p.80.

بعنوان: "مقالة الحديقة في معنى الحجاز والحقيقة" وضع فيها معارفه الفلسفية لخدمة التوراة، ويعتبر الكتاب أو مقالة الحديقة سيرة ذاتية لابن عزرة، كما يعرض فيها أسلوبه في أشعاره التي نظمها، وله كتاب: "المحاضرة والمذاكرة" وهو كتاب فريد من نوعه، حيث لم يترك موضوعاً من موضوعات اللغة والنحو والفلسفة والأخلاق إلا واهتم به؛ وصفه أحد ناسخيه فقال: "وهو مقالة تتضمن المحاضرة والمذاكرة، « وفيها نكت من أمور الشعر والشعراء، ونبت من صنعة الخطب والخطباء، ونقط من نوادر العلم والعلماء، وشواهد من كلام الزهاد والفضلاء، ونوادر من أبناء الفلاسفة والحكماء، ولمع من تواريخ الأعيان والشهراء (كذا) وفقر من براعة الكتاب والبلغاء، وجمل من آثار النحويين والفقهاء"²⁵ وكتاب حسن المحاضرة عبارة عن أجوبة أحاب بها ابن عزرة سائله، وهي طريقة لمجها للمؤلفون اليهود مثل ابن ميمون، في كتابه دلالة الخائرين، ويهودا اللاوي في كتابه: "الحجة والدليل في نصره الدين الدليل"، كما لمجها مؤلفون مسلمون أيضاً، ومن أهم نصوص كتاب "المحاضرة والمذاكرة" المطلب الثالث وهو كيف صار الشعر في ملة العرب طبعاً وفي سائر الملل تطبعاً لأن الشعر عند العرب فطرة وعند غيرهم صناعة، والمتصفح لدواوين الشعراء اليهود بالأندلس مثل سلمون بن كيرول، وأمير شعرائهم يهودا اللاوي، وابن عزرة وغيرهم؛ لن يجد غير أوزان الخليل المعروفة وأوزان الموشحات الأندلسية²⁶.

إن كتاب " الحجاز والمذاكرة"، لابن عزرة رسالة في فن الكتابة وتاريخ الشعراء اليهود من أهل الأندلس وآثارهم، وقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، ولم يبق منه إلا ترجمته العبرية، وكتاب "الحديقة في معنى الحجاز والحقيقة"، لم يبق منه إلا فقرات من ترجمته العبرية باسم "أرحاب هابوشم" وهو كتاب يغلب عليه الطابع الفلسفي، ويحوي طائفة من الأمثال والحكم.

²⁵ الفقرة من وضع الناسخ الحالي، انظر: أحمد شحلان، المرجع السابق، ص: 69.

²⁶ أحمد شحلان، المرجع نفسه، ص 76 .

تحدثنا في أطروحتنا للدكتوراه²⁷ عن النقلة النصرانية لتراث المسلمين إلى الغرب في عصر المرابطين وسمحنا لأنفسنا أن نتخطى المرحلة التاريخية ولو بعقدين من الزمن خاصة مع كبير النقلة جيرار الكريموبي الذي بدأ العمل أيام المرابطين في طليطلة. حيث كانت طليطلة مدينة كبيرة للمستعربين المسيحيين قد عرفت نشاطاً ثقافياً يهودياً واسعاً، وقد كان بالمدينة التي تختلط فيها العناصر المسيحية واليهودية وأقلية مسلمة (مدحنة) رضيت مؤقتاً بحكم النصرانية السادة الجدد لعاصمة القوط القديمة. كانت قرطبة مركز الترجمة من العربية إلى العبرية ومن العبرية إلى اللاتينية. وعند سيطرة المسيحيين على طليطلة عام 478م/1085م، مرت الأعمال التي ترجمت إلى الغرب المسيحي. وكذلك مرت أعمال أرسطو وغيرها من نماذج التفكير اليوناني التي ترجمت إلى اللغة السريانية ثم إلى العربية والعبرية واللاتينية، بمراحل وطرق واضحة المعالم: الأديرة السريانية التي تقع في شمال سورية وفيما بين النهرين، ومكاتب المأمون للترجمة في بغداد، ثم إلى مصر وأفريقيا الشمالية والأندلس: قرطبة، وطليطلة والمراكز اليهودية في اللانجدوك (*Languedoc*)، لتصل في القرن الثالث عشر إلى جامعة السوربون²⁸.

فكيف كانت وضعيتهم في الجهاز السياسي المرابطي، ومدى نقلهم للمعارف الإسلامية للغرب؟

1- اليهود نقلة المعرفة الإسلامية إلى الغرب المسيحي (الترجمة)

وبعد أن استعرضنا للأسماء اللامعة-من اليهود- ومنجزاتها، نجد الإشارة أن النقلة اليهود عاصروا مرحلة النقل والترجمة وفيهم من شارك في مؤسسة الترجمة بطليطلة ومنهم من انتقل إلى إنجلترا أو فرنسا، لكن الشيء الملاحظ هو أن جميع الرسائل الطبية التي ألفها مؤلفون يهود في القرن الثاني عشر (عصر المرابطين) كتبت بالعربية، وهو برهان على سمو العربية واعتبارها لغة العلم حتى من قبل غير الناطقين بالضاد، وقد نقلت بعد فترة وجيزة جداً إلى العبرية، وفي أحوال كثيرة نقلت من العبرية إلى اللاتينية

²⁷ محمد الأمين بليغث، المرجع السابق، ج 2، ص: 562.

²⁸ موريس لومبار، المرجع السابق، ص: 119-120.

فقد ترجمت أعمال ابن ميمون، وهو مؤلف يهودي أندلسي تعلم ونشأ في عصر المرابطين ثم انتقل إلى مصر وعاصر صلاح الدين الأيوبي وأولاده من بعده، حيث ألف الغالبية الساحقة من مؤلفاته باللغة العربية واشتهر كفيلسوف وكطبيب، وترجمت كتبه إلى العبرية على يد عدد من المترجمين من أمثال زراحيا غراسيان وموسى بن طيبون، وترجمت إلى اللاتينية، بعد هنيهة²⁹ على يد كل من يوحنا بن كابوا وأرمينغو بن بليس، ولقد تعاصر ابن ميمون مع جيرار ومدرسته مع العديد من المترجمين اليهود يستحقون الذكر ساهموا في نقل المعرفة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق ترجمتها إلى اللغة العبرية، ومن هؤلاء النقلة يوسف قمحي (*Joseph Qimhi*)، وهو يهودي أسباني، نحوي ورجل دين وناقل من العربية إلى العبرية، ولد في جنوبي الأندلس ونبغ في نابونة وولد سنة 499هـ/1105م وتوفي سنة 559هـ/1170م، تابع نشاط إبراهيم بارحيا الرشلوني (457-531هـ/1065-1136) في نقل الفكر العربي اليهودي إلى سكان أوروبا النصرانية، وترجم من العربية إلى العبرية كتاب الهداية إلى فرائض القلوب تأليف يحيى بن يوسف في عصر المرابطين (النصف الأول من القرن الثاني عشر ميلادي)، كما ترجم شعراً منظوماً باللغة العبرية "كتاب مختار الجواهر لابن جبيرول"، ومن النقلة اليهود في عصر المرابطين يهوذا بن طيبون (*Judah Ebn Tibbon*)، وهو من أسرة يهودية أندلسية نبغ فيها عدد كبير من النقلة من العربية إلى العبرية، ونقلت هذه الأسرة المؤسسة عددًا كبيرًا من الكتب العربية إلى العبرية، وأول هذه الأسرة يهوذا بن طيبون المسمى أبا النقلة اليهود، ولد في غرناطة سنة 514هـ/1120م ونبغ هناك حتى حوالي 545هـ/1150م، وقد نقل عددًا من الكتب العربية بين سنتي 556هـ/1161م و585هـ/1190م،

²⁹ هاجر ابن ميمون من فاس متجهًا إلى مصر عام 556هـ/1160-1161م، في زمن الموحدين. وألف قبل هجرته رسالتين هامتين هما: رسالة الأيمان وهي رسالة يدعو فيها موسى بن ميمون إلى وحدة اليهود، والثانية في سبيل تقديس اسم الله وكانت هذه الرسالة بمثابة رد على أحد كبار أجداد اليهود. وهذا معناه أن موسى بن ميمون قد عاش مرحلة طلب العلم في أواخر المرابطين وأوائل عصر الموحدين. مهران، بنو إسرائيل (الجزء الثالث) الحضارة، التوراة والتلمود، ص: 368. عطا علي شحاته ربه، المرجع السابق، ص: 196.

كما أدخل إلى العبرية عددًا من المصطلحات العلمية الحديثة ذات الأصل العربي، وقام بترجمة:

1. كتاب الأمانات والاعتقادات تأليف سعديا بن يوسف، وقد نقله من العبرية إلى العربية، وطبع بالقسطنطينية عام 1562م.
 2. كتاب إصلاح الأخلاق لابن جبرول الذي ألفه في النصف الأول من القرن الحادي عشر ميلادي)، وطبع بالقسطنطينية عام 1550م.
 3. كتاب مشكاة الجواهر لنفس المؤلف.
 4. كتاب ابن جناح المسمى كتاب التمع، وهو كتاب في القواعد حوالي عام 567هـ/ 1171م.
 5. كتاب الأصول لابن جناح المذكور أعلاه، وهو قاموس عبراني نقله وترجمه عام 567هـ/ 1171م.
 6. كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ليحيى بن يونس وقد حجبت هذه الترجمة ترجمة نفس الكتاب التي قام بها يوسف قمحي في عهد المرابطين.
- وقد تركت هذه الأسرة أسماء لأمعة في عالم النقل والترجمة في العصر الذي يلي أي خلال القرن الثالث عشر ومنهم على سبيل المثال صمويل بن يهوذا بن طيبون الذي عاش طويلا في الأندلس ثم انتقل إلى مرسيليا حتى مات فيها سنة 628هـ/ 1230م وقد نقل كتب كثيرة أهمها دلالة الخاترين لابن ميمون وذلك حوالي سنة 602هـ/ 1204م³⁰.
- وكانت الترجمة في ذلك العصر تجارة مربحة تدر على أصحابها الأموال الطائلة، وكان موسى بن طيبون المولود بمرسيليا عام 638هـ/ 1240م قد ورث حرفة أسرته المشهورة بأعمال الترجمة الواسعة للآثار العبرية وقد اختص موسى بالآثار الفلسفية³¹. ومن أشهر

³⁰ أحمد ماهر حمادة، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب، (فكرًا ومادة)، القسم الأول، دراسة منهجية لانتقال الفكر العربي الإسلامي والكتاب العربي إلى ديار الغرب وأثره في النهضة الأوروبية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1412هـ - 1992م، ص: 96.

³¹ حسن عبد الرحمن علقم، الجوانب الفلسفية في كتابات ابن السيد البطلوسي، عمان، الأردن، دار البشير 1408 هـ / 1988م، ص: 194.

الترجمين أيضاً بمدرسة طليطلة إبراهيم بن عزرة وفرح بن سالم وإبراهيم بن يحيى المتوفى عام 531هـ/1136م. فالترجمة وسيلة مهمة عرفت أوروبا بالعلوم العربية واليونانية، لأن العربية كانت همزة الوصل بين الإغريقية واللاتينية وهو دور لم يأخذ حقه. فكانت الترجمة ونقل المعرفة من أهم ما وصلت إليه هو إنشاء جامعات ورابطات تشبهها بالمسلمين فكانت هذه الحلقات العلمية نواة الجامعات الأوروبية العريقة المعروفة إلى اليوم.

كان اليهود يتحلون كتب المسلمين في الطب وفي علوم شتى لهذا نصح ابن عبدون الإشبيلي المعاصر للحقبة موضوع الدرس بعدم بيعها لليهود. قال ابن عبدون: "يجب ألا يباع من اليهود، ولا من النصراني، كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين، وكان الحسن أن لا يترك طبيباً يهودياً، أو نصرانياً، وأن يجلس ليطلب المسلمين، فإنهم لا يرون نصيحة مسلم إلا أن يطبوا أهل ملتهم، ومن لا يرى نصيحة مسلم، كيف يليق بالمهجع³². كما لا يمكن أن نهمّل دور منطقة معروفة أشرنا إليها أعلاه إشارة خفيفة وهي منطقة سرقسطة ودورها في تسرب العلوم وقيام حركة ترجمة كبيرة، فإنه غير بعيد عن طرشونة كانت هناك تَطِيلَة مدينة الأعمى التطيلي الشهير وتقع على نهر الإيبرو، وهي أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين كما عبر ابن غالب³³ وفي هذه المدينة كانت تقطن جالية يهودية

³² ابن عبدون الإشبيلي، رسالة في الحسبة، (ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمختص بتحقيق ونشر ليفي بروفنسال القاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م. ص: 57. محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي إلى الغرب، دمشق، بيروت، دار الفنايس، 1419هـ/1999م. ص: 140.

³³ ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأندلس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، نشر وتعليق لطفي عبد السيد، القاهرة (مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ربيع الأول 1375هـ/نوفمبر 1955م. ص: 287. مارتن برنال، أئنة السودان (الجزء الأول، الجزء الأول، (تلفيق بلاد الإغريق) (1785-1985) تحرير ومراجعة أحمد عثمان، ترجمة لطفي عبد الوهاب، فاروق القاضي، منيرة كروان، عبد الوهاب علون، حسن الشيخ، سلسلة المشروع القومي للترجمة، رقم: 16، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1997م. ص: 71.

مهمة في عهد المرابطين، وهي موطن الدارسين اليهوديين إبراهيم بن عزرة بن مير التظلي (1089-1164م) أو (1092-1167م)؟ ويهوذا هاليفي أو اللاوي (1085-1148م) ويقال: إن المترجمين هرمان الكارثي (*Hermann of Carinthia*) وروبرت القيطوي (*Robert of Keton*) قد اشتغلا في منطقة الإيبرو منذ عام 535هـ/1141م، فمن المعقول إلى درجة كبيرة أنهما كانا في تطيلة، بل لقد أصبح روبرت في ما بعد رئيس الكنيسة في تلك المدينة، وكان هرمان يعرف عدة مصادر مثل ما عرف هوغو ولربما أتيح لهما الوصول إلى مكتبة بني هود أيضاً الغنية بكتب الطب والتنجيم والمنطق والفلسفة والهندسة والفلاحة ورسائل إخوان الصفاء³⁴.

شهد القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي عصر المرابطين، حركة ترجمة واسعة، واكتسبت هذه الحركة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وإسبانيا يثير الإعجاب، وتدفق علم اليونان والرومان على الأديرة من خلال العقول العربية، وأدجت الكشوف التي توصل إليها المسلمون ضمن رصيد الثقافة الغربية، وقد أطلقت أسماء العديد من المدن الإسبانية على مجموعة المخطوطات الرياضية والفلكية التي ترجع إلى ذلك العصر، ومن بين تلك المدن التي كان أساقفتها تواقين إلى المعرفة: طرسونة، بنبلونة، وبرشلونة وسرقسطة، وطرطوشة وتتفوق طليطلة في هذا الميدان على جميع هذه المدن، حيث توافد عليها عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين للحصول على المعارف العلمية الشرقية³⁵. تمتع اليهود بمكانة كبرى في عهد المرابطين مدار الدراسة، ومما يحكى أن أيوب بن سليمان من بيت الخلافة المروانية بالأندلس أيام دولة المرابطين، وكان شاعراً مجيداً وأديباً أريباً، يدخل على الأمراء

³⁴ تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة من العربية في القرون الوسطى في إسبانيا، (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني، تحرير سلمي الخضراء الجيوشي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م. ط. 2، ص: 1454.

³⁵ جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة د. حسين مؤنس، د. إحسان صدقي النعمد، مراجعة فؤاد زكريا، (سلسلة عالم المعرفة) الكويت العدد: 234، صفر 1419هـ/يونيو، حزيران، 1998م. ط. 2، ص: 220.

والرؤساء وكبراء البلد، فيمدحهم فيجزلون له العطاء، إلا أنهم يطلبون منه مغادرة بلادهم، نظراً لنسبه المرواني، فكان يقول: "الحمد لله الذي أسعدنا به أولاً وأشقانا به آخرًا" ومما يحكى أنه اتفق أن أكرمه يهودي نزل عنده، وقد تخيل أنه رسول من بعض أمراء المرابطين، أو ممن يلوذ بهم فلما أعلمه غلامه، أنه من بقايا بني أمية، هاج وأخذ رحمه وحلف أن لا يبقى له في منزل، فقال: إذا سُئلت عني فقل إنه من اليهود، فإنه أمشي لحالنا» فهل هذا يدل على مكانة وسطوة اليهود في عصر المرابطين³⁶.

2- مشاركة اليهود الاقتصادية (بين تسامح الدولة واحتكارهم المالي والتجاري)

إن التسامح مع الغرباء، ومع أهل الذمة والجاليات المسيحية في عصري المرابطين والموحدين تقوم حجة على من ينكر هذا السلوك الحضاري للدول المغربية رغم اعتبار هؤلاء الغرباء والمليشيات المسيحية نقيصة من نقائص دولتي المرابطين والموحدين، كما انتشرت ظاهرة الزواج والتسري بالمسيحيات منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين، مع كثرة الرقيق الأبيض ببلاد المغرب ولما كانت بحاية بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها، « وبلغ الخال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بفضاوان من الروم بسوداء من الوخش » في بحاية كما يقول الغريبي³⁷.

وكان من أثر هذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين أن كثرت أسواق الرقيق في كبريات الحواضر وانتشار ظاهرة التسري بالجواري الصقلييات وامتلات قصور الأمراء كبار الموظفين بالمسيحيات، فاعتنق الإسلام البعض منهن، وكان لهن مقام مرموق عند

³⁶ محمّد الفاسي، دراسات مغربية (من وحي البينة) سلسلة عيون، المغرب الأقصى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1990م، ص: 142.

³⁷ عسّوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بحاية، تحقيق الأستاذ راجح بوناز، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971م، ص: 76.

بعض المموك³⁸. ويمكن أن نذهب أبعد مما ذكرنا فنقول: إن المحافظة على العقيدة وحماية البيضة بالأندلس بأقصى الغرب الإسلامي لم يجمع المرابطين من تحقيق الأمن للحاليات المسيحية ولأهل الذمة عامة. ومن الواضح أن المحافظة على العقيدة والجهاد باعتبارهما حقوقاً لله تعالى تدخل ضمن اختصاص ولاية الأمور، مثل جمع الزكاة والأنفال، وإذا كان من واجب أمراء المسلمين بالغرب والأندلس أيام دولة المرابطين تعطيهم حق حماية العقيدة والدولة بالغرب الإسلامي، فليس معناه أن يكون لهم رقابة وسيطرة على ضمائير الناس، بل الأمراء كما تذهب إلى ذلك الشريعة الإسلامية يلتزمون فقط بتزليل أحكام الشريعة والمبادئ الأساسية التي أقرها الإجماع بواسطة مجتهدي الأمة، فليس من حق أمير المسلمين أن يتخذ محاكم تفتيش ضد من يعتبرهم من الملحددين، فلا وجود لمحاكم تفتيش على ضمائير الناس بما فيهم أهل الذمة من مواطني الدولة الإسلامية، دون إخلال بالنظام العام، كما يجب أن نفرق بين الحرب الهجومية التي تعلن ضد غير المسلمين الذين يرفضون الاعتراف للمسلمين بحرية الدعوة إلى الإسلام بعد دعوتهم لذلك، والحرب الدفاعية التي تهدف إلى صد كيدهم وعدوانهم³⁹.

كان دأب اليهود التسلط في عصر الطوائف كما شهد بذلك عبد الله الزيري في مذكراته، وقد نالت القصيدة المنسوبة إلى المولى العابد أبي إسحاق الألبيري التي خاطب فيها باديس ومحرضاً على الوزير اليهودي ابن النغيلة (993-1056م) دورها، وتعتبر هذه القصيدة عن تسلط اليهود في مملكة غرناطة الزيرية. ثم كيف أن هذه القصيدة بلغت رسالتها فقامت على إثرها ثورة غرناطة في عام 459هـ/1066م. والتي أدت إلى العديد من الصحايا اليهود لتجاوزهم عقد الأمان، وانتهت أموالهم من طرف عامة المدينة،

الصديق بن العربي، طوائف وشخصيات مسيحية بالغرب، (مجلة تطوان)، المغرب، 1956، ص: 155. جان وجيروم صارو، أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلاقرنج وعمد الفاسي، الرباط، المطبعة الوطنية، 1349هـ. ص: 18.

³⁹ عبد الرزاق أحمد السنهوري، فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية، تحقيق توفيق الشاوي، نادية عبد الرزاق السنهوري، دمشق، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م، ط. 1، ص: 166.

وهي على حد تعبير أحد الباحثين أقل بكثير مما انتهبه اليهودي ابن النغريلة من مسلمي غرناطة ومستضعفيها بتواطيء من حكام الإمارة⁴⁰.

وإسماعيل بن يوسف بن النغريلة اليهودي من أولئك اليهود الذين طعنوا في دولة الإسلام واستهزأ بالمسلمين، وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يُغني بها، فأل أمره إلى أن قتله صنهاجة أصحاب الدولة ومن شعره الذي نظم فيه القرآن قوله⁴¹:

نقشت في الخد سطرًا *** من كتاب الله موزون

لن تنالوا البر حتى *** تنفقوا مما تحبون

وحسب الأمير الغرناطي عبد الله الزيري صاحب التيبان، فإن يهود غرناطة قتلوا جميعهم عن بكرة أبيهم، فهل يمكن الحديث عن مجزرة ضد اليهود؟ فلو كان الأمر كذلك لما تركت الدراسات اليهودية هذه القضية ثم دون تضخيمها أو توظيفها على المستوى السياسي لتشويه التاريخ الحضاري للأندلس الإسلامية. وهي على ما يبدو المدخجة الوحيدة التي سجلها تاريخ الإسلام بالأندلس والمشرق⁴².

⁴⁰ ابن الخطيب، كتاب تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب إعمال الأعلام في من بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنصال، بيروت، دار المكشوف، 1956م، ط.2، ص: 231-233.

⁴¹ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، القسم الثاني، ص: 114. إميليو غرسيه غومت، مع شعراء الأندلس والنتي، ص: 113.

Evariste Levi-Provençal. "Les Mémoires de Abdallah, dernier Roi Zirid de Grenade » dans *al-Andalus*, 3, (1935), p. 273-300-301.

⁴² ريموند شبايندين، اليهود في إسبانيا المسلمة، ترجمة مريم عبد الباقي، (إحصارة العربية الإسلامية في الأندلس) الجزء الأول، تقرير سلمى الخضراء الجيوشي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م، ط.2، ص: 306. انظر اختلافات كبيرة بين القصيدة عند ابن الخطيب والديوان الموجود بين أيدي الناس. إميليو غرسيه غومت، مع شعراء الأندلس والنتي، ص: 125-127. القصيدة رقم: 25 من الديوان، ص: 151-153. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 231-233.

David J. Wasserstein. "Samuel ibn Naghrila ha-Nagid and Islamic historiography in Al-Andalus", dans *Al-Qantara*, XIV-1, (1993), p.109-125.

وقد سجل الشعر أيضاً سيطرة اليهود على الأسواق في المدن الأندلسية ومما ذكره الشاعر أبو حفص العروضي الزكرمي ما قاله بالأندلس، وقد طوِّب بمكس كان يتولاه يهودي بدانية :

يا أهل دانية لقد خالفتم *** حُكْمَ الشريعة والمروةَ فينا

مالي أراكم تأمرون بضدَّ ما *** أمرت، تُرى نسخ الآله الدنيا

كنا نطالب لليهود بجزية *** وأرى اليهودَ بجزية طلبونا⁴³.

وأخطر حدث عرفته الأندلس في عهد ملوك الطوائف هو محاولة "إنشاء كيان سياسي يهودي بالمرية" وهذا الصدد يقول الباحث مسعود كواقي "وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الدويلات (الطوائف) تتصارع، لم تستطع توحيد جهودها للحد من الخطر المسيحي، بالإضافة إلى ضعفها، ففي هذا الظرف ظهر المشروع اليهودي وكان صاحبه يوسف بن النغيلة الوزير في الدولة الزيرية بقرنطة، الذي كان يُمَنِّي نفسه بأن يصبح الحاكم الفعلي لهذه الدولة" وتحدث ابن عذارى عن طموحات ابن النغيلة الذي طلب أن يقيم لليهود دولة⁴⁴ "ومما ضاعف نقمة الناس على الضرائب وجباها (من اليهود والنصارى) وهو كلام غير موثق صدر عن بعض الباحثين بدعوى أن المرابطين أوكنوا إلى اليهود جباية الضرائب في عدة مناطق بالأندلس؛ كما أسند علي بن يوسف إلى جنده الرومي جباية البلاد الغربية، وبخاصة جبل درن وأحياناً كانت توكل إلى الجيش عامة، فابتدلوا الأعراض في جبل درن حسب ابن الأثير⁴⁵.

وقد فصلَّ النويري ابتدال الأعراض فقال: "وقيل إنَّه لما خاف أهل تينمل نظر (المهدي) إلى أولادهم فرآهم شقرًا زرقًا، والذي يغلب على الأباء السمرة، فقال لهم مالي أراكم سمر الألوان وأولادكم شقرًا زرقًا، فأخبروه خبرهم مع ممالك أمير

⁴³ أبو ظاهر السفني، أخبار وتراجم أندلسية، أعدها وحققها إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1405هـ/

1985-ص: 37.

⁴⁴ كواقي، المرجع السابق، ص: 268 وما بعدها.

⁴⁵ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء العاشر، ص: 537.

المسلمين، فقالوا لأن لأمير المسلمين عدة من الماليك الفرنج والروم، وأهم يصعدون إلى هذا الجبل في كل عام مرة، يأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان فيسكنون البيوت ويخرجون أصحابها منها⁴⁶ ومن عجز عن أداء الوظيفة صودرت أمواله⁴⁷.

وكانت إقامة القوى المسيحية بالعاصمة مراكش تحت نظر أمير المسلمين، وكانوا عادة إذا خرجوا في مهامهم يكونون تحت نظر صاحب بيت المال، لذلك أكد أكثر من واحد إذ "عهد إلى اليهود بأعمال الجباية في بلاد الأندلس في عهد المرابطين وكذلك في بلاد المغرب، وعهد بأعمال الجباية إلى النصارى المقيمين في مدينة مراكش"⁴⁸. والشيء الذي لا تنكره الوثائق والدراسات اليهودية نفسها أن للجاليات اليهودية شخصيتها الميزة في العصر الوسيط، وذلك من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) إلى زمن الموحدين أي ما بعد سنة (539هـ/1144م). ولم ينشأ في أي من المجتمعات اليهودية الأخرى مثل هذا العدد الكبير من اليهود ممن أحرزوا مناصب مرموقة بل مراكز نفوذ في العالم اليهودي، كما لم تُنتج أي من تلك المجتمعات مثل هذه الثقافة الأدبية التي يعكس فيها مع آخرين من غير اليهود.

واستمر نفوذ اليهود الذين خضعوا للدولة الإسلامية بالأندلس، في ظل حضور الثقافة العربية والإسلام لزمان طويل واضح الحضور في لغتهم وقواعدها وصرفها وأدبها إلى ما بعد أقول نعم الحضارة الإسلامية في الأندلس خاصة، رغم المكانة الكبيرة التي كان عليها اليهود في العراق ومصر، فإن يهود الأندلس من أيام الفتح إلى نهاية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي كانوا في مرتبة عالية من التحضر والمكانة السياسية والثقافية، وقد عادت الفتوحات الإسلامية الكبيرة من فارس إلى أسبانيا في

⁴⁶ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، ص: 198. التويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرين، ص: 282.

⁴⁷ عز الدين عمرو موسى، المرجع السابق، ص: 172.

⁴⁸ من حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص: 171.

القرنين السابع والثامن الميلاديين بالكثير والرخاء على اليهود⁴⁹ وعندما انتشر خبر فتح المسلمين للأندلس ومنح الحريات لليهود في أنحاء أوروبا هاجر كثير من يهود أوروبا إلى الأندلس، وكان اليهود يتجمعون في مدن معينة مثل قرطبة ومالقة وطليلة وإشبيلية وسرقسطة وغرناطة وألبيرة وأليسانة التي كان سكانها من اليهود فقط ولا يدخلهم فيها مسلم، فراجت تجارتهم داخل الأندلس وخارجها، وكان اليهود يحتكرون بعض المهن والحرف والصناعات التي يرون أنها تدر عليهم أموالاً طائلة، واحتكروا بعض أنواع التجارة كتجارة العبيد والحواري البيض والحرير والتوابل⁴⁹، وجمع اليهود الذين كانوا يعيشون تحت ظل الحكم الإسلامي في الأندلس أموالاً طائلة، وكانوا لكثرة ثرائهم يرسلون الأموال إلى اليهود الفقراء خارج أسبانيا⁵⁰ حتى كان يلجأ إليهم يهود العالم لجلب الإعانات، فلما أسر ابن رماحس في عرض البحر أربعة من الأساتذة اليهود، وبعد التحري عنهم عرف الربان أنهم من سورات (Sura) في الهند؛ مقصدهم الأندلس لجلب إعانات اقتصادية للأكاديميات اليهودية من يهود الأندلس الأغنياء⁵¹. ولم تكن الجالية اليهودية مضطهدة بل وجدت الفرص متاحة للاختلاط اليومي، بحكم الحوار والبيئة الواحدة، وأثبتت الوثائق والنوازل المعاملات اليومية⁵². رغم أن فتاوى سابقة على هذا العصر قد ألزمت يهود القيروان بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم وهيئاتهم، وأفتى يحيى بن عمر بن لبابة الأندلسي (ت. 289هـ/901م) أن يعاقب اليهود والنصارى الذين يتشبهون بالمسلمين بالضرب والخس ويطاف

⁴⁹ عز الدين عمرو موسى، المرجع السابق، ص: 110. بوتشير، المرجع السابق، ص: 97.

⁵⁰ محمد بحر عبد المجيد، المرجع السابق، ص: 20-21. عبد الإله ميسوم، تأثير المؤشحات في القروبادور، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م. ص: 142 وما بعدها.

⁵¹ ريموند. ب. شابيندين، المرجع السابق، ص: 301.

⁵² ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى "النوازل والأعلام"، تحقيق المحامي رشيد بن حميد النعيمي، الرياض، شركة الصفحات الذهبية المحدودة، 1417هـ/1997م. الجزء الثاني، ص: 948.

هم في مواضع اليهود والنصارى ليكون ذلك تحذيراً لهم لمن رآهم منهم وزجراً⁵³. قال ابن عبدون المعاصر للحقبة المرابطية: "ويمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، أو بما هو من آبهة، ومن ركوب الخيل بالسروج والزي بما هو زي المسلمين، كالشكلة في حق الرجال، والجلجل في حق النساء، ويمنع المسلمين أن يتناولوا لهم كل ما فيه خساسة أو إذلال للمسلمين، كطرح الكناسة ونقل آلات الخمر، ورعاية الخنازير، وشبه ذلك، لما فيه من علو الكفر على الإسلام، ويؤدب من فعل ذلك⁵⁴ ويبدو عدم التزام السلطة السياسية العليا المرابطية بأحكام أهل الذمة وهذا مرده إلى التسامح الذي انتهجه حكام الدولة مع اليهود والنصارى المعاهدين لذلك تشددت كتب الحسبة على القضاة والأمراء من أجل تطبيق أحكام الشريعة فقال ابن عبدون: "يجب ألا يحك مسلم اليهودي؛ ولا النصراني، ولا يرمي زبله ولا يتقي كنيفه، فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذا الصنع، لأنها صنع الأرذلين، لا يخدم مسلم دابة يهودي، ولا نصراني، ولا يستزمل له ولا يضبط بركابه، وإن عرف هذا أنكرك على فاعله⁵⁵.

⁵³ يحيى بن عمر الأندلسي، كتاب أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي (صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدينته) المجلد الرابع، العددان الأول والثاني، 1375هـ/1956م، ص: 128.

⁵⁴ ابن عبدون الإشبيلي، المصدر السابق، ص: 122.

⁵⁵ وأتهم ابن عبدون نصارى العصر بالفسق فقال: يجب أن يمنع النساء المسلمات دخول الكنائس المشنوعة، فإن القسيسين فسقة زناة لوطفة، يجب أن يمنع الإفريقيات من الدخول في الكنيسة، إلا في فضل، أو عيد، فإنهن يأكلن ويشربن ويترنن مع القسيسين، وما ومنهم إلا وعنده منهن اثنتان أو أكثر، بيت معهن، وقد صار عرفاً عندهم، لأقم حرموا الحلال، واستحلوا الحرام، يجب أن يؤمر القسيسون بالزواج كما في ديار المشرق، ولو شاوروا لفعلوا، يجب أن لا يُترك في دار القسيس امرأة، ولا عجوز، ولا غيرها، إن تأبى الزواج، يجب أن يُجبروا على الختان، كما كان يفعل بهم المعتضد عبّاد؛ فإنهم متبعون بزعمهم لسنن عيسى، وعيسى قد اختن، ولم في يوم اجتنانه عيد يُعظمونه، ويتركون ذلك، يجب أن لا يذبح يهودي لمسلم، ويؤمر اليهود أن يتخذوا أوضاعاً لأنفسهم، نفسه، ص:

3- حضور اليهود بالأندلس المرابطية بين وثائق جنيزة القاهرة ووثائق العصر الخطية

حاول المختصون استقراء وضع اليهود في الأندلس وتطور جالياتهم ومراكز استقرارهم، وحفظت لنا كنيس الجنيزة وثائق تفيد في استعادة صورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعالم البحر المتوسط في تلك الفترة وبعض تلك الوثائق يتصل بالأندلس إما مباشرة أو استنتاجاً حيث تضم وثائق الجنيزة مراسلات ووثائق في غاية الأهمية، ولكننا مع ذلك لا نملك ما يشبه السجلات والدفاتر الخاصة بعبور التجارة الدولية أو سجلات محاكم التفتيش التي عرفتها إسبانيا المسيحية في مطلع القرن السادس عشر، أو سجلات الكنائس ودواوين الجند والغرباء أو الطوائف على البلاد، حيث يعاني منها عالم العصور الوسطى كما ذهب إلى ذلك ريموند شايندلين (Raymond P.Scheindlin) أستاذ الدراسات العبرية والأدب العربي.

إن أهم ما قدمته وثائق جنيزة القاهرة، معلومات فائقة القيمة المبرزة للعلاقات الكبيرة التي ربطت اليهود في الحوض الغربي للمتوسط بيهود المشرق والعالم حتى بلاد الهند والصين، وكان ذهب إفريقيا الغربية الرائج في عهد المرابطين من أجنود أنواعه، حتى استعملت وروجت الدنانير الذهبية المرابطية في عام 1167م من طرف ملوك أوروبا، ووثائق الجنيزة تشير إلى تعامل المصريين ويهودهم خاصة بهذا المعدن النفيس⁵⁶. وأجنود ذهب أهل الأرض وأصحه، ذهب السودان الغربي، الذي سيطرت عليه حركة المرابطين التي قامت على أكتاف قبيلة لتوتونة بالأدرار الموريطاني بالتحالف

⁵⁶ انظر تقييم خاص للباحث روالد ميسي (Rouald A.Messier) في بحث قيم عن ذهب عصر المرابطين في ملتقى جامعة بنغهامبتون نوفمبر 1973م.

Rouald A. Messier, "The Almoravids West African gold and the gold currency of the Mediterranean basin" dans *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, p. 31-47.

سامح عبد الرحمن فهمي، إضافات جديدة في مسكوكات المرابطين ضرب المربة الأندلسية (530-536هـ/1136 - 1142م) (حوليات إسلامية) المجلد الخامس والعشرون المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة، 1991م. ص: 50.

مع مسوفة، جدالة وأمنت هيمنتهم للحفاظ على هذا الذهب إلى غاية شمال النيجر، حيث تكونوا وتوحدوا لمقاومة مملكة غانة الشهيرة التي كانت قد احتكرت ملح تغازة وذهب المنطقة، وحاولت العناصر اليهودية بغيرها التجارية تكوين شبكة من الوسطاء من الحواضر المعروفة إلى غاية وصوله إلى المدن ودور الضرب والأسواق العالمية، وخاصة بعد تحقيق المرابطين للوحدة المغربية الأندلسية، إذ أدّى يهود درعة وسجلماسة وماسة - كما تشير الوثائق دوراً - محورياً في التبادل التجاري بين الغرب الإسلامي والمشرق وممالك أوروبا⁵⁷. إن الغنى الذي تميزت به منطقة ماسة عن باقي مناطق المغرب هو الذي جعلها قبلة للتجار، حتى أن بعض العناصر اليهودية فضلت الاندماج بالسكان لممارسة الأعمال التجارية، ومن الطبيعي أن يتحالف يهود درعة وسجلماسة، مع بقية عناصر الخاليات اليهودية بالأندلس ومصر كما تشير وثائق الجنيزة⁵⁸.

وقعت بعض الدراسات اليهودية في تناقضات كثيرة بين واقع اليهود التاريخي في الأندلس والمغرب أيام المرابطين الذي تميز بالتسامح الذي أشارت إليه الأبحاث المنصفة، قال: قولدنبرج (Goldenberg) لكن وضعهم أيام المرابطين سوف يختلف تماماً نظراً لما حققته هذه الدولة ذات الطابع الديني المتعصب من توسع على حساب العديد من المراكز التي استقر بها اليهود بشكل مكثف، كمنطقة درعة وسوس⁵⁹. التي تزعم إحدى الوثائق العبرانية أن أول مملكة قامت في المغرب هي مملكة يهودية بالريف⁶⁰ وذكر ابن عذاري أن يوسف بن تاشفين «افترض في سنة 464هـ/1072م) على اليهود

⁵⁷ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي (طور الإلهام) الجزء الثالث، القسم الأول، ص: 75. أحسن بولطيب، الحياة الاقتصادية للحلف المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين (بجدة الاجتهاد) العدد الثامن عشر، السنة الخامسة، بيروت، دار الاجتهاد، شتاء العام 1993م/1413هـ. ص: 65.

⁵⁸ Pierre Guichard, "L'époque almoravide: perspective d'ensemble" in *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X^e-XV^e siècle*. Paris, Puf, 1995, p. 151-167.

⁵⁹ A. Goldenberg; *Les Juifs du Maroc*, Paris, Scribe. 1992. p. 62.

⁶⁰ بوتفيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص: 92.

فريضة ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار⁶¹ استعان بها على ما كان بسبيله وهو مبلغ باهض يعكس ثراء اليهود. وكانت أسباب هذه الفريضة غير معلومة السبب، لأن يوسف قد ملك أموال قبائل القبلة وأعطته زوجته زينب بنت إسحاق الأموال الغزيرة، وبها أركب الرجال وكون الحرس وأسس مظاهر القوة والملك، وجمعت له القبائل الأموال العظيمة، فجدد بها الأجناد، وهذه الأموال الكثيرة ضرب السكة ودون الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد واشترى جملة من العبيد السودان؛ وبعث إلى الأندلس فاتباع له من الأعراج فأركب الجميع فغلظ حجابيه وعظم ملكه، ويذهب أحدهم فيقول: إن اقتصاد المغازي تحكم في توجهات الدولة المرابطية واعتمد أساساً على الموارد الحربية بما فيها الجزية وشتى أنواع الضرائب الأخرى، فمن البديهي أن يعين ابن تاشفين في استغلال اليهود⁶² وفي سبيل تنفيذ خطته زعم أحد فقهاء قرطبة وربما بإيعاز من الأمير المرابطي نفسه؛ أنه وجد في بعض أوراق مؤلف صنفه ابن مسرة الجبلي القرطبي حديثاً منسوباً إلى النبي يروي أن اليهود ألزمت نفسها أنها إذا جاءت عام الخمسمائة عام من بعد مبعث رسول الله، ولم يجتهد نبي منهم على ما زعموا، فإن الإسلام لازم لهم، لأنهم وجدوا في التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام "إن النبي الرسول الذي منعه محمد، لا بد من ظهور الحق على يديه، ونوره متصل باتصال الساعة، فإن لم يظهر منهم النبي فإنهم يعتنقون الإسلام إذا حلت المائة الخامسة من الهجرة⁶³، واستغل الأمير المرابطي هذه "الوثيقة-الحجة" فجعل منها ذريعة لتخييرهم بين الإسلام أو التعرض لغرامة مالية ثقيلة، فاختاروا الحل الثاني بإيعاز من أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين أحد الفقهاء المساندين لسياسة يوسف في البحث عن المال بكل

⁶¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 23. مجهول، الحلل النوشية، المصدر السابق، ص: 25.

⁶² محمد الأمين بلفيت، النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م، ص: 58.

⁶³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 22.

الوسائل وبذلك ضمن يوسف لسياسته ومشاريعه الأموال المظنونة، فساهمت هذه الغرامة في سد نفقاته الكثيرة وشكل نصيب يهود أليسانة حصة الأسد منها، خاصة أنهم اعتبروا أغنى اليهود آنذاك⁶⁴ وبرر أحدهم قيام علي بن يوسف بإجراءات احتياطية في مراكش، وهذا بمنح اليهود من الميث في العاصمة ليلا، نظراً للظرفية السياسية والصراعات الداخلية المتعددة في أكثر من جهة في المغرب ضد ابن تومرت، وفي الأندلس ضد النصارى، ولذلك كان لا بد من الاحتياط في عاصمة الدولة، ومقر تجمع الجند، وما يتصل بذلك من خطط وتحركات عسكرية وتحقق خوف علي بن يوسف من اليهود فجاءت الخديعة والخيانة من أحد قادة الجيش المسيحي الموالي للمرابطين حينما فتح الأبواب للموحدين بعد حصار مرير انتهى باقتحام مراكش سنة 541هـ/1146م⁶⁵. مما دفع بعض الكتاب إلى القول بأن أهل الذمة عاشوا في اضطهاد في دولة المرابطين وأنهم لم يتمتعوا بحريتهم الدينية".

يقول بروكلمان عن يهود الأندلس في هذا العصر: اضطرب يهود أليسانة وهم أغنى اليهود في الأندلس إلى أن اشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة في حين آثر غيرهم أن يرحلوا البلاد وهو عين ما فعله والد الفيلسوف ابن ميمون⁶⁶. وهذا خطأ تاريخي لأن أسرة ابن ميمون لم تغادر الغرب الإسلامي إلا في أوائل عهد الموحدين، وآثر الفيلسوف اليهودي صاحب "دليل الحيارى" الهجرة إلى مصر، فأصبح رئيس الجالية اليهودية كما هو مفسر في المدونات التاريخية⁶⁷. ويرى الباحث اليهودي حاييم الزعفراني أن يهود الأندلس قد عرفوا حياة أكثر رخاء وأكثر اطمئنان كما لم تعرفها منطقة أخرى، ونظراً للوضع القانوني المتسامح فإن يهود الأندلس أدوا دوراً أساسياً في الحياة الاقتصادية المزدهرة في البلاد كما كان لهم دورهم في الشؤون العامة.

⁶⁴ الخلل الموشية، المصدر السابق، ص: 80-81. بروكلمان، المرجع السابق، ص: 323.

⁶⁵ مجهول، الخلل الموشية، المصدر نفسه، ص: 138. عبد النعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975م، ص: 47.

⁶⁶ بوتشيش، المصدر السابق، ص: 99. انظر الإحالة رقم: 169.

⁶⁷ بروكلمان، المصدر السابق، ص: 323.

عدد الدارسون وظائف اليهود الكثيرة بالمغرب والأندلس من أبسط المهن وأحقرها إلى السيطرة على مسالك الطرق التجارية والمدن الرئيسية القائمة في محطات معلومة في تاريخ الغرب الإسلامي وتقوم هذه المهن في مناطق تفترض الأمن والأمان مما تقوم حجة على رد كثير من الروايات المبالغ فيها التي تحدثت عن اضطهاد المرابطين لليهود والنصارى في عصرهم⁶⁸. كما أن نوازل العصر منذ الفتح قد صبغت روح التسامح العلاقات الاجتماعية بين سكان الأندلس، فكان اليهودي يملك إلى حوار المسلم فقد تنازع يهودي مع ممنوك مسلم خدمه، فقال اليهودي للقاضي: هو عبدي ابتعته من أهل طليطلة منذ أربع سنين⁶⁹، كما تنازع مسلم بقرطبة مع اليهودي أبي إسحاق حول بيت المسلم حسان وشنوغة اليهودي وأفتى أبو الأصبح عيسى بن سهل بأن وثائق حسان غير كافية وأفتى في نفس المسألة القاضي محمد بن فرج، فكان الأمر على ما في الفتوى والحكم والغموض في صالح اليهودي شنوغة. وتبرز النوازل العلاقات بين عناصر المجتمع الأندلسي في الميراث والوصية على الأيتام، والتراعات حول العقار والشركات التجارية، مما يدل على أن المجتمع الأندلسي من المجتمعات الراقية في تاريخ الحضارة الإسلامية التي تحقق فيه التعايش والتسامح بين المجتمع المسلم وبقية الطوائف الأخرى من يهود ومستعربين أسبان⁷⁰.

إن الإجراءات التي قامت بها الدولة المرابطية لا تدعو إلى الاستغراب، خاصة لمن وقف على سياسة المرابطين المالية، إذ لم تكن سياستهم الضريبية تقوم على فرض

⁶⁸ فيليب فسارح، يوسف كراباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي والعربي والتركي، ص: 67. موريس لومبار، المصدر السابق، ص: 310. أدغار فيبر، في الجدل الديني في الأندلس والاستمولوجيا الحديثة، ترجمة الصادق الميساوي، (المجلة العربية للثقافة)، العدد السابع والعشرون، تونس، ربيع الأول، 1415هـ/1994م، ص: 80.

⁶⁹ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، الجزء الثاني، ص: 887 وما يليها. ص: 948 وما بعدها.

⁷⁰ محمد بن هارون الكناقي التونسي، مختصر النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للمطيني (منحدره وثائق ابن هارون، نسخة العطارين)، رصيد المكتبة الوطنية بالعطارين، تونس رقم: 18696. ص: 218 وجه المنتظي السبكي، النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، مخطوط رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية بإقامة رقم: 1074. ورقة: 73 ظهر. ابن رشد، مسائل ابن رشد، تحقيق الشيخ كافي، الجزء الأول، ص: 530.

معونات وجزية أو مصادرة بعض القبائل النائرة أو اليهود وحدهم، بل يرى أحد الباحثين⁷¹ أن المرابطين جبلوا على فرض مغارم ومكوس متنوعة على جميع الشرائح الاجتماعية كضريبة المعونة⁷²، وضريبة التعيب⁷³ وغيرها من الضرائب التي يقوم عليها كيان الدولة⁷⁴. وكانت هذه الضرائب وخاصة ضريبة المعونة الوقتية قد أوقعت يوسف بن تاشفين في أزمة مع الفقيه أبي عبد الله محمد بن يحيى بن البراء بالمرية الذي رفض ضريبة المعونة⁷⁵. ويصف الشريف الإدريسي المرية مؤكداً على ضريبة التعيب قال: "ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام وكان بها من كل الصناعات كل غريبة وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثمان مائة طراز يعمل بها الخلل والديباج وعدد فنادقها تسعمائة وسبعين فندقاً خاضعة للتعيب"⁷⁶. وأكد نفس الضريبة وهو يتحدث عن مراکش. ورأى أن من حسنات الموحدين القضاء على الضرائب المستحدثة، وقتل أصحاب المكوس⁷⁷ مستدلين بما علمهم المهدي من أصول الشريعة.

كما أن الإدريسي وقد أهدى كتابه في زمن الفتنة أو مرحلة ملوك الطوائف الثاني فيصف قرطبة بأوصاف، تدل على معرفة بأخبار الأندلس في هذه المرحلة. ثم حدد مواقع سكنى اليهود في هذا الزمان فقال: "وألسانة مدينة اليهود ولها ريبس يسكنه

⁷¹ بوتيش، المصدر السابق، ص: 99.

⁷² المعونة: ضريبة فرضها عفي بن يوسف على أهل فاس وبعض المدن الأندلسية لبناء الأسوار ومساعدة جيشه بالعبء فأعانه أهل فاس انظر: ابن القبطان، نظم أجمان، ص: 152.

⁷³ التعيب: بدأ المرابطون إلى فرض ضريبة تسمى التعيب أو التعطيب خصصت لإقامة أسوار جديدة حول المدن وترميم القديم منها. شعيرة المرابطون « تاريخهم السياسي » ص: 152.

⁷⁴ حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص: 200. الحسين البغدادي، في الفكاهة والفكاهين، (دراسات أندلسية) تونس، العائد السابع، رجب، 1412هـ/جانفي 1992م، ص: 65، ص: 62.

⁷⁵ مني حسن أحمد محمود، المصدر السابق، ص: 179.

⁷⁶ الشريف الإدريسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص: 563.

⁷⁷ وصف أبو حسام القرناطي المعاصر للمرحلة المرابطية ناقداً لنفس الوضع حينما وصف بلاد الهند قال: «ويعترومون التجار المسلمين غاية الاحترام، ولا يؤخذ منهم عشور في بيع أو شراء ولا مكس، فبألبت ملوك المسلمين اقتبلوا هذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها». أبو حسام القرناطي، تحفة الألباب، ص: 42.

المسلمون وبعض اليهود وبه المسجد الجامع، وليس على الرض سور... واليهود يسكنون بحوف المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة، وأهلها مياسير أكثر غنى من اليهود الذين يبلاد المسلمين؛ ولليهود بها حذر وتحصن ممن قصدهم⁷⁸ وأليسانة ضاحية قرطبة ومدينة اليهود؛ ووصف المدينة المشهورة وحاضرة الإسلام فقال: "ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحتتها رحى الفتنة وغيرها حلول المصائب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير⁷⁹. ثم يحدد موقعاً آخر لليهود فيقول: "ومن مدينة طرطوشة إلى طركونة خمسون ميلاً ومدينة طركونة على البحر وهي مدينة اليهود ومنها إلى برشلونة من الشرق ستون ميلاً⁸⁰. وحوها رجال "الاسترداد" إلى مكان تجمع أسرى المسلمين في القرن السابع الهجري. وهل يمكن اعتبار ما استحدثه المرابطون من ضرائب تابعة لنظامهم الخاص بالإقطاع العسكري، الذي حدثنا عنه المصادر مثل صاحب الخلل الموشية البنسي قريب عهد بالمرابطين، أو مثل ما ذكر الرحالة اليسع الغافقي المؤرخ (ت. بعد 575هـ/1179م) الذي يقول عن النظام العسكري المرابطي بالأندلس: "وكان ترتيهم في الأندلس، أنهم لم يزيدوا فارساً على خمسة دنانير للشهر شيئاً، مع نفقته وعلف فرسه، فمن ظهرت بحدته وإعانتة وشجاعته، أكرموه بولاية موضع يتنفع بفوائده، وتركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين، لكونهم أحرر بأحوالها، وأدرى ببقاء العدو وشن الغارات، ولم يمكننا من ولايتها أحد سواهم، مع إحسان إليهم، وكانوا متى وصلتهم خيل من العدو، يبعثوا إلى أهل الثغور"⁸¹.

وتمكن اليهود من تكوين رابطة يهودية بفضل ثرائهم الفاحش لاقتداء أسراهم سواء من الأندلس المرابطية أو إسبانيا النصرانية، كما ظهر ذلك من خلال رسالة

⁷⁸ الإدريسي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص: 571. عبد الله الزيري، المصدر السابق، ص: 143 وما بعدها.

⁷⁹ ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، ص: 299. الإدريسي، المصدر السابق، ص: 579.

⁸⁰ الإدريسي، المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص: 555.

⁸¹ مجهول، الخلل الموشية، المصدر السابق، ص: 82. الطرطوشي، المصدر السابق، ص: 107. الجنحاني، المصدر

السابق، ص: 44 هامش رقم: 11.

كتبها يهودي في طليطلة سنة 520هـ/1126م حول فدية سجنينة يهودية في مملكة أراغون، ومما يعكس الوضعية الاجتماعية التي تبوأها اليهود أن بعضهم كان يملك العبيد وهو ما تشير إليه نوازل العصر كما جاء عند ابن سهل⁸² وفي أحكام ابن زكون⁸³ ترد إشارات ملكية بعض اليهود عبيدًا وماليك⁸⁴. كما تبين الوثائق المكتشفة في الكنائس بالثغر الأعلى وجود جالية يهودية كبيرة بسرقسطة عاصمة الثقافة اليهودية بشرق الأندلس، وكذا بوشقة (Huesca) والريف الحاذي لمملكة أراغون، حيث أبرزت الوثائق وجود ممتلكات يهودية ومعاملات تجارية بين الجالية اليهودية والمستعربين الأسبان في تواريخ مختلفة، ففي سنة 491هـ/1098م وقبل سقوط مدينة وشقة (Huesca) بيد الملك بيدرو الأول (Pedro I^{er}) أن ممتلكات كنسية أصبحت في حكم صاحبها ثياكسوردة (Zavaxorda) اليهودي، وتمثل في ضيعة تابعة لكنيسة سان بيدرو (San pedro de Séptimo) شمال وشقة، وتدل الوثائق على ملكية اليهود لمساكن ومحلات تجارية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أن سقوط وشقة وحدودها الشمالية في 491هـ/سبتمبر 1098م، في يد المستردين الأراغونيين قد عجل برحيلهم إلى داخل المدن الإسلامية التي لا تزال تحت سلطان المرابطين، كما أن بالمنطقة والريف الشمالي للثغر الأعلى عقارات للجالية اليهودية بما في ذلك مقبرة قديمة تدل على استقرار الجالية منذ مدة بالمنطقة إلى غاية سقوط عاصمة الثغر الأعلى سرقسطة البيضاء عام 522هـ/1118م. مع العلم أن الثغر الأعلى منطقة حساسة لأنها تمثل أهم مراكز الاحتكاك الحربي بين نصارى الشمال وممالكهم المتعددة والدولة الإسلامية في العصر الأموي أو دولة بني هود أو أيام المرابطين وحروهم المريرة بالمنطقة إلى غاية سقوط العاصمة سرقسطة⁸⁵.

⁸² ابن سهل، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص: 887 وما يليها.

⁸³ ابن زكون، اعتماد الأحكام في مسائل الأحكام، ص: 159.

⁸⁴ بوتيش، المرجع السابق، ص: 98.

⁸⁵ Pedro Chalmeta, *El concepto de Tagr, (La marche Supérieure d'Al-Andalus et l'occident chrétien)* Casa de Velazquez, Madrid, 1991. p.28

كما تثبت الوثائق الكنسية وجود جالية يهودية كبيرة بظليظة قبل سقوطها بيد ألفونسو السادس، وهو ما أثبتته وثائق العصر ومنها يهود طليطلة وغرناطة وظليظة حسب نوازل محمد بن أحمد بن الحاج القرطبي (ت. 26 رمضان 539هـ/1135م).

ومن الوثائق المعاصرة نكتشف وجود معاملات تجارية وبيع عقارات بين الجالية نفسها وإن كانت الأسماء المذكورة في العقود يبدو عليها التحريف وكأها أسماء عربية، ومن الوثائق المكتشفة في هذا عملية بيع نصف حقل غناب المستصلح من طرف شميلة (Chamila) بنت فرش (Farach) زوجة باليتري (Belinsi) البناء لصالح الربري ابن إسحاق بن نحميس (Rabi Binshac) اليهودي بمبلغ ثلاثمائة منقال مرابطي⁸⁶.

وسرقسطة هي موطن أبي الفضل بن حسداي (ت 515هـ/1121م) الشاعر والموسيقار، كما عرفت المدينة الفيلسوف اليهودي إسحاق بن سمعان القرطبي صديق فيلسوف عصر المرابطين ابن باجة، وهو الآخر من الشعراء والمهتمين بالموسيقى⁸⁷ والأشعار الغنائية. وتثبت وثائق الجنيزة نفوذ أثرياء اليهود بالأندلس في هذا العصر، حيث تشير رسالة أحد اليهود المتنفذين التي أرسلها إلى أحد أصدقائه يطلب منه فيها الاتصال بأقاربه وبصاحب الشرطة لإطلاق سراح سجين يهودية في مملكة أراغون، وهذا بفضل ثرائهم الفاحش فتمكنوا من تكوين رابطة يهودية لافتداء أسراهم سواء في أسبانيا النصرانية أو الأندلس المرابطية⁸⁸، مما ينهض حجة على نفوذهم الواسع. وحظي اليهود في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بالمعاملة الحسنة، باستثناء منعهم من المبيت بالعاصمة مراكش لظروف استثنائية، ومما يدل على المعاملة الحسنة وعدم التعسف مع يهود فاس أن أمير المسلمين كما يشير ابن زرع حينما أراد توسعة

⁸⁶ F. Bezler, *Chrétien, Juifs et Musulmans dans l'Espagne Musulmane* ; p. :102. note.

25.

خليل إبراهيم صالح، السامرائي الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية (95-316هـ/714-928)، بغداد، مطبعة أسعد، 1976م، ص: 40.

⁸⁷ Zafarani, *Traditions poétiques op. cit.* p:89

⁸⁸ Goitein ; *A Mediterranean, op. cit.*, p. :332-335.

جامع القرويين وجد أرضاً في ملكية اليهود لحواره، فلم يفتصبها بل اشتراها منهم بالزيادة في ثمنها⁸⁹.

تعامل المرابطون على نطاق ضيق مع الغرب اللاتيني، وفضلوا ترك مثل هذا التعامل التجاري لمن رسخت أقدامهم في هذا الميدان من سكان المدن الإيطالية واليهود الذين ترددوا على طرق التجارة الواصلة بين براغ وشمال فرنسا ومن أسواق الرقيق في الأندلس، ولعل تجارة الشرق وتجارة الصحراء استوعبتا كل نشاط التجار المسلمين، كما شرع تجار ييزا في تثبيت أقدامهم في تونس وبجاية وسواحل المرابطين المتوسطية⁹⁰. وكان التجار المغاربة والأندلسيون -على اختلاف مذاهبهم ومدتهم- يرتادون مجاهل إفريقيا في اتجاه تشاد؛ النيجر؛ صنغاي؛ وغانة بغرض التجارة ونشر الإسلام⁹¹ وهو ماتتبه وثائق الجنيزة التي نشرها الباحث جويتاين⁹². وتمكنت البحرية المرابطية بقيادة ابن ميمون من حماية الواجهة الغربية للبحر المتوسط وتأمين الطرق البحرية والسهر على حراستها، وبالرغم من غياب علاقات سلمية⁹³ بين الغرب الأوروبي ودولة المرابطين فإن الجانب التجاري والعلاقات التجارية كانت متطورة بشكل عام، وهو ما تدل عليه تدفق السلع من الصين وبيزنطة وإيطاليا إضافة إلى المشرق الإسلامي، ومن الجدير بالملاحظة أن المستعربين واليهود قاموا بدور الوسيط التجاري بين الأندلس المرابطية وبين أسبانيا المسيحية وأقاليم البحر المتوسط وبيزنطة والغرب الأوروبي من جهة وبين المشرق الإسلامي من جهة أخرى كما أن اليهود -بصفة خاصة- أذوا دوراً هاماً في التجارة الدولية في العصور الوسطى، إذ كان لهم النصيب الأوفر في التبادل التجاري بين الشرق والغرب، باعتراف المؤرخين المسلمين والمسيحيين نظراً لحالة الحرب التي

⁸⁹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 39.

⁹⁰ أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص: 474. دندفر، المرجع السابق، ص: 209. سحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، ص: 234.

⁹¹ فخّار، بنو برزال نسيلة في البرازيل أو أسطورة كريستوف كولومب، ص: 44.

⁹² Goitein ; *A Mediterranean, op. cit.*, p. 13

⁹³ التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الخامس (عهد المرابطين) ص: 190.

تعرفها الأندلس مع الممالك الأسبانية، بالخصوص منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي⁹⁴، وهذا ليس معناه انعدام العلاقات التجارية بين الأندلس منذ أيام قرطبة الأموية، بل تشير الوثائق إلى علاقات تجارية قوية، أشار إليها قدماء الكتاب، حيث كانت السلع النادرة كالحرير والجواهر وسبائك الذهب المصنعة والحواري الصقلييات تمر عن طريق غاليسية، قادمة من أوروبا الوسطى نحو الأندلس والمشرق، وساعدت هذه التجارة الدولية التي احتكرها اليهود، سواء في حوض المتوسط، أو أوروبا أو آسيا⁹⁵، إلى ربط علاقات وثيقة بين يهود العالم وربطت هذه السيطرة والشبكة المتينة بين الجاليات اليهودية المتفرقة عبر أقطار العالم، كما ربطتها علاقات قوية وتبادلوا المصالح وهو ما تثيره المراسلات الدائمة، ولم يقتصر شكل هذه المراسلات الضخمة حول المسائل التجارية، بل تعدتها إلى المسائل الفقهية والدينية، وهي مراسلات جرت بين مختلف الطوائف التي كانت راغبة في وجود مرجعية دينية، وقد كان القطب والمرجعية التشريعية اليهودية حسب الوثائق اليهودية، هي بغداد والعراق عموماً، لهذا حرص اليهود على جمع التبرعات بسخاء لحفظ الوثائق وتبادل الكتب والمعلومات والقيام بنفقات حفظ الأكاديميات اليهودية في بلاد العراق وفلسطين، وهي بمثابة مراكز عالمية لليهودية، وقد تحكم يهود العراق لفترة طويلة في احتكار السيادة على بقية الجاليات اليهودية في العالم بما في ذلك الجاليات اليهودية بالأندلس والغرب الإسلامي عامة، إلى غاية القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي⁹⁶. وهذه المكانة تفسرها حالة الأمن والرخاء الذي اكتسبته الجالية اليهودية من عصر المرابطين -مع استثناءات بداية الفتح وتوحيد المنطقة- وهو ما أعطى للعملة المرابطية القوة والتفوذ لسيطرة المرابطين على أهم مصادر الذهب والفضة بالمغرب والأندلس، كما كانت

⁹⁴ كسال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، ص: 5338.

⁹⁵ فيشل، يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ص: 109.

⁹⁶ لومبار، المرجع السابق، ص: 311.

موانئ المغرب والأندلس من أنشط الموانئ التجارية في عالم العصور الوسطى، وكاد الدينار المرابطي منافس عملة بيزنطة رغم قوتها، وأصبح الدينار المرابطي عملة دولية. أُنشِئَ على اليهود الذين يستغلون الطريق البحري بين بلاد الإسلام وأوروبا اسم "تجار البحر"⁹⁷ وكانوا يتكلمون عدة لغات من بينها العربية والفارسية واللاتينية، وتبدأ رحلاتهم من بروفانس في جنوب فرنسا، ويعبرون بسفنهم البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء الفرما، ثم يحملون تجارتهم على ظهور الدواب إلى القلزم، ومن هناك تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئ الهامة مثل حدة، ثم يخرجون إلى بحر العرب متوجهين إلى ميناء عدن، ثم يمضون إلى الهند والصين، وفي طريق العودة إلى أوروبا كانوا يحملون معهم سلع الشرق، فإذا وصلوا إلى القلزم، اتجهوا إلى الفرما أو الفسطاط والإسكندرية ومنها يبحرون إلى بروفانس، وأحياناً كانوا يتوجهون إلى انطاكية أهم ميناء تجاري في الشام، وكذلك إلى القسطنطينية عاصمة الروم لبيع بضائعهم فيها⁹⁸.

رغم التحول الكبير للحالية اليهودية في عهد المرابطين الذين يملكون أكاديميات دينية في قرطبة وأليسانة وطليلطة وسرقسطة ووشقة وغرناطة، وكانت الحالية اليهودية في هذا العصر مدار البحث من أغنى المجموعات والحاليات المتواجدة بالأندلس، مما أحس البعض منهم بالخوف من النظام المرابطي في أيام يوسف بن تاشفين والمرحلة الأولى لحكم أمير المسلمين علي بن يوسف، لهذا عرفت الأندلس هجرة يهودية منتظمة نحو طليلطة للدخول في خدمة السيد الجديد ألفونسو السادس، كما أن وثائق الجنيزة لا تربط هجرتهم نحو الآفاق للإضطهاد الذي تعرضوا له بل تذكر الوثائق أن يهود الغرب الإسلامي، والسيارة منهم بالخصوص قد هاجروا في حدود 535هـ/1140م إلى سيلان، ولأن دور اليهود في التجارة الدولية سيصبح ثانوياً، حيث أخذت منهم هذا الدور في الغرب البيوت التجارية والمصارف الإيطالية⁹⁹.

⁹⁷ ابن الفقيه اضمدان، البلدان، "ليدن، 1967م، ص: 270، موريس لومبار، المرجع السابق، ص: 313.

⁹⁸ صفاء حافظ عبد الفتاح، الموانئ والتعور المصرية، ص: 178.

⁹⁹ عز الدين موسى، المرجع السابق، ص: 110. هامش رقم: 5. لومبار، المرجع السابق، ص: 317.

كانت طليطلة من أنشط مراكز التبادل الحضاري بين العالم الإسلامي والمسيحي، حتى أن ألفونسو السادس قد وكل رئاسة المدينة للمستعرب شِسْنَنْد (*Sisenando*) *(daidez)* الذي كان على درجة كبيرة من التسامح، مقارنة بغيره، وقد عمل ما بوسعه لمنع ألفونسو من نقض موثيقه وعهوده المعطاة للمؤمنين قبل وفاته، حيث كان بعض المستعربين يقدرون حسن معاملة المسلمين لهم، فوقوا منهم موقفاً ودياً إبان المحن التي أصابتهم عند تفرق أمر الأندلس على أن البعض منهم اتخذوا موقفاً عدائياً من المسلمين عندما رجحت لهم الكفة في الصراع الدائر على شبه الجزيرة، ويبدو هذا بوضوح في غزوة أذفونش المحارب ملك أرغون عام 519هـ/1125م ولكن تحت تأثير رهبان كلوي (*Chuny*) الفرنسيين وتأثير برنار (*Bernard*) رئيس أساقفة "دير سهاجون" وأسقف طليطلة فيما بعد، وفي أثناء غياب ألفونسو وبتشجيع من زوجته الفرنسية الأصل تواطأت مع الرهبان وحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة في ربيع الأول سنة 498هـ/ديسمبر 1104م، وهو من الأعمال المتسرعة التي أثارت ضجة كبرى أثارها فقهاء الإمارات الأخرى. وكانت العربية بطليطلة اللغة الأولى في الإدارة والمراسيم التشريعية، كما كانت إلى غاية مطلع القرن السادس عشر، إلى أن تحولوا إلى اللغة الرومانسية المعروفة بالخميادة (*Aljamiado*)¹⁰⁰.

ومما يرهن على وجاهة ما ذهبنا إليه أن اليهود الرادانة¹⁰¹ تخصصوا في أوروبا آنذ في تجارة الرقيق في حوض الرون، حيث كان المسلمون واليهود في الأندلس يذهبون إلى براغ لشراء الرقيق والقصدير والقندس، ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية إلى نهر بجانة، ويتبعون الطريق التقليدي إلى الفرما نحو الشرق وإلى أقصى بلاد الصين¹⁰²

¹⁰⁰ الزيري، المصدر السابق، ص: 73.

¹⁰¹ اليهود الرادانة: هم يهود سوق الأهواز حسب اعتقاد فيشل وليس نسبة إلى يهود الرون (بروفانس) بفرنسا: والتر.ج. فيشل، يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1408هـ/1988م. ص: 52.

¹⁰² يسمى لومبار يهود بروفانس اليهود الرادانية الذين عرفهم بواسطة نص مهم لابن خرداذبة (ت. 748م).

موريس لومبار، المرجع السابق، ص: 313.

بداية من القرن التاسع الميلادي، ونظرًا لاعتماد المسلمين على المسالمين من المستعربين واليهود لقضاء حوائجهم الداخلية والخارجية في الممالك الأوروبية، اعتمادًا ضاق الناس به ذرعًا في عصر المرابطين لأن أمر الخيل والعقد كاد-أو آل إليهم- بصورة متعاقبة في بعض الممالك الإسلامية، وهذا ما عبر عنه قاضي المرابطين أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجحدت (515هـ/1121م)¹⁰³، حيث قال: (الوافر) :

تَحَكَّمَتِ الْيَهُودُ عَلَى الْفُرُوجِ *** وَتَاهَتْ بِالْبِغَالِ وَبِالسُّرُوجِ

وقامت دولة الأندال فينا *** وصار الحكم فينا للعلوج

فقل للأعور الدحال هذا *** زمانك إن عزمت على الخروج¹⁰⁴.

ودارت على ألسنة الأندلسيين أشعارًا لم تنسب لصاحبها ابن الجحد كما فعل ابن فضل الله العمري.

فهل وصل أمر السيطرة الدولية لليهود إلى هذا الحد في الغرب الإسلامي، وقد أدى هذه الأمر إلى إحساس اليهود بأنهم يضيق فقال أحدهم إلى أبيه يافث اللامي بن علا بالمسرية وهو يتحدث عن فاس "كره اليهود فاش في هذه البلاد حتى أن المرية بالقياس رحمة"¹⁰⁵.

4- مهنة الفكاكة والدور اليهودي الدولي في غرب المتوسط

احتكر اليهود في زمن المرابطين خطة "الفكاكة" وهي خُطَّة أصبحت متداولة في اللغات الأوروبية (*Alfaqueque*) والفكاك هو القائم على فك وفداء أسرى المسلمين والتحول في الممالك الأوروبية وفي دار الإسلام والأندلس خاصة لفك

¹⁰³ يجلو أن ابن الجحد كان شاعرًا مجيدًا ولولا معاقرة العقار لمأ ذكره البلاد كما قال ابن بسام، الذخيرة، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص: 556-562.

¹⁰⁴ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبطال في ممالك الأقطار، الجزء السابع عشر، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية، 1988، ص: 321. الحسين الحقوي، في الفكاكة والفكّكين، ص: 63.

¹⁰⁵ أمسين توفيق الطيبي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي من خلال رسائل جنيزة القاهرة (مجلة البحوث التاريخية) مركز دراسات الجهاد الليبي، السنة السادسة، العدد الثاني، يوليو 1984، ص: 447.

الأسرى، وأصبحت كتب الأحكام¹⁰⁶ تتضمن بآيا كبيرة يتضمن شروط هذه العقود القائمة بين الفكاك وأهل الأسير أو السلطة السياسية العليا في الأندلس فكان اليهود من أوائل من مارس الخطة-من غير العباد والنبلاء- في المحيط الإسلامي والمسيحي على السواء بداية من القرن التاسع والعاشر لاختصاص اليهود الرادنة بالتجارة في ممالك الشمال كما ذكر غير واحد من المؤرخين وحتى الأدباء كالجاحظ، ثم دخل التجار المسلمون والمستعربون في هذه الخطة إلى أن آل الأمر أن يتنافس فيها القساوسة والشركات والجمعيات الدينية¹⁰⁷. وكثيراً ما يتحول التجار اليهود إلى فكاكين للأسرى، كما رأينا يهود طليطلة في نوازل محمد بن الحاج¹⁰⁸.

وتطورت مهنة الفكاك في غرب المتوسط خلال القرن الثالث عشر على إثر تطور عمليات القرصنة بين المسلمين والأمم الأوروبية الأخرى بالمنطقة.

كيف أمكن أن يصل اليهود إلى هذه السطوة ومثل هذه المراكز؟ وقد تكون الإجابة بسيطة عند جل المؤرخين، وهي أن هؤلاء الذين وصلوا إلى أعلى الخطط السياسية

¹⁰⁶ من الأسر العائلة الشريفة العاملة بالغرب الإسلامي التي تلحاً إليها العائلات لفك أسراهم عائلة بني عشرة بسلا فهذا الشاعر محمد بن سوار الأشبوني ويكنا أبا بكر، أسره الروم بمدينة قورية مدة من الزمن ثم فداه أحد بني عشرة أعيان سلا فأكثر من مدالحه فيهم.

¹⁰⁷ «الفكاكة»: الفكاك خطة من يتولى فك أسرى الجهاد الثغري، أو الجهاد البحري، أو القرصنة، من بلاد النصراري والعسلي على إرجاعهم بعد فديتهم من دار الضلالة. انظر: الجزيري، انقصد المحمود، ورقة: 80 وجه. العبقوي، في الفكاكة والفكاكين، ص: 62. ميسوم، تأثير المؤشحات في التربو بادور، ص: 182. أحمد مهدي الغزالي، نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد "رحلة الغزالي وسفارته إلى الأندلس"، حققه وقدم له إسماعيل العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1980م. ص: 35. عبد الناصر جبار، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، 14-15 للميلاد، رسالة ماجستير في الآداب مخطوطة، إشراف حامد زيان غانم، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1411هـ/1990م. ص: 157 وما بعدها.

¹⁰⁸ نوازل ابن الحاج، ص: 293-294. انظر: الملحق رقم: 10. من أطروحتنا. محمد الأمين بلغيت، المرجع السابق، المجلد الثاني. ص: 698.

ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليبي، السفر الثالث، فطر، بيروت دار إحياء التراث الإسلامي، دار الغرب الإسلامي 1407هـ/1987م.، مسألة رقم: 521. ص: 1423 وما بعدها. النازلة سأل عنها الأمير أبو طاهر محمد بن يوسف بن تاشفين (ت. 520هـ/1127م)

التنفيذية في عهد ملوك الطوائف، تقول: إنّه التسامح وأن هؤلاء اليهود لا يملكون دولة، ولا يمكن أن يطمع أحدهم أقصى ما يتمناه هو الجاه والسلطان والثروة، وهو ما وفرته لهم ظروف توليهم حماية الأموال للمسلمين في عصر الطوائف وفي مملكة ألفونسو السادس أيضاً؛ حيث كان لهم حسب الدراسات التاريخية نفس مبرر ملوك الطوائف، أي عدم طمع اليهود في القيام بانقلابات سياسية على عروش هؤلاء الملوك والأمراء؛ وأدى استحواذ اليهود واستبدادهم بالسلطة والنفوذ إلى ثورة وسخط تأجج في صدور الرعية ضد حكامهم وسياستهم المتخاذلة، نتيجة لاستئثار اليهود في عصرهم بالمناصب الكبرى، أمثال شموئل بن نكديلا الذي أصبحت له حظوة كبرى عند جبوس وباديس وملوك غرناطة، ويوسف ابنه الذي أصبح وزيراً لبلكين بن باديس، فأثروا وأثروا معهم غيرهم من اليهود¹⁰⁹. فقد كان لدى حكام الأندلس في العصر الأموي وفي عهد بني عامر وعهد الطوائف عامة حافزاً قوياً يدفعهم للاعتماد على اليهود في الأمور الدبلوماسية والمالية والإدارة العامة، ذلك أن اليهود لم يكن بمقدورهم أن يطمحوا إلى السلطة السياسية العليا، ولذا فخطرهم على النظام القائم كان أقل من خطر المسلمين الذين قد يطمحون إلى تولي الحكم بأنفسهم¹¹⁰. وإذا كانت الأندلس في العصر الإسلامي مركزاً تجارياً دولياً هاماً، كما كانت تصلها بضائع الشرق والغرب، حيث كانت المدن الأندلسية أسواقاً للتجار الأندلسيين والأجانب، يقومون فيها بأعمال التجارة البعيدة أو الدولية، وبقيت التجارة الأندلسية شديدة الارتباط بمناطق أخرى من عالم المتوسط الإسلامي طوال غالبية العهد الإسلامي، من أواسط الفترة الأموية في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي حتى ذروة الانتصارات المسيحية في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فقد كان التجار وبضائعهم يتقلون بحرية على امتداد الخطوط البرية والبحرية التي تصل الأسواق الأندلسية بأسواق المغرب والشرق، وكانت مدن مثل المرية وإشبيلية ومالقة تقوم بدور مخازن التصريف

¹⁰⁹ ريموند شابيندين، المرجع السابق، ص: 305.

¹¹⁰ عبد الله الريري، المصدر السابق، ص: 66-68.

التجارية، حيث كان يقوم بأعمال الاستيراد والتصدير تجار مسلمون ويهود ومسيحيون¹¹¹. وإذا كان حظ اليهود كبيراً في هذه التجارة نظراً لاكتشاف وثائق الجنيزة، فكذلك كان حظ المسيحيين كبيراً نظراً لاكتشاف أرشيفات الكنائس والأديرة في السنوات الأخيرة. أما حظ المسلمين الأندلسيين فيكاد يكون نادراً مع شهرتهم وكثرة تجوالهم في العالم، لأن كتب السلاسل والطبقات لا تهتم إلا بالعلماء والصلحاء، فإذا كانوا من فئة العلماء التجار فحظهم أكبر في تدوين سيرتهم وإن كانوا من فئة التجار فلا يذكرون إلا عرضاً، ولهذا فإن حظهم في التجارة الدولية في غياب الوثائق، يترك المؤرخ في حيرة من أمره في غياب النصوص لأن ما هو طاغ في النصوص التاريخية الخاصة بالمعاملات التجارية يخص اليهود دون غيرهم من بقية عناصر المجتمع الأندلسي¹¹². أي أن الوثائق المتوفرة ذات المعلومات المحدودة لاتحدث إلا عن التاجر العالم، وئمة مصادر هامة أخرى عربية، مثل كتب الحسبة وكتب التوازل، التي تتوفر على معلومات متفرقة، شأن كتب الجغرافيا والرحلات الحجية وغيرها من الكتب الأدبية، حيث كان الأندلسيون أشد تجار المعمورة ارتباطاً بأبناء بلدهم وإقليمهم، حيث إن روابط الولاء والهوية الظاهرة المستقلة كانت تسير في الاتجاهات العامة للمجتمع الأندلسي، لأن التعاون الاقتصادي يغلب أن ينمو في نفسيتهم حب الطائفة وأبناء الإقليم، حيث نجد مثالا على هذا الميل في رسالة كتبها موسى بن ميمون ينصح فيها ابنه أبراهام أن يحذر من الغرباء في رحلاته وألا " يصادق بإخلاص أية جماعة سوى إخواننا الأحباء من أسبانيا، المعروفين باسم الأندلسيين". وكانت أسرة ابن ميمون التي عاشت معظم حياتها بالأندلس المرابطية، ولم تهجر إلى مصر إلا بعد أن تمكنت الدولة الموحدية من إمساك الأندلس بقوة، كان ابن ميمون يريد لابنه أبراهام أن يصاحب اليهود الأندلسيين، دون المسلمين أو المسيحيين من أهل الأندلس

¹¹¹ أوليفيا ريمي كونستيل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ترجمة، عبد الواحد لؤلؤة (الخطبة العربية

الإسلامية في الأندلس) الجزء الثاني، ص: 1063.

¹¹² أوليفيا ريمي كونستيل، المرجع نفسه.

بالضرورة، ويظهر هذا الميل للارتباط الكثير بين أبناء الجالية اليهودية كما توضحه كثيراً رسائل "كنيس القاهرة" وتظهر شبكة الشراكة بين التجار اليهود في الأندلس العاملين مع ثغور الشرق في العصر المرابطي¹¹³؛ حيث ساد التعاون والتفاهم بين اليهود في جميع أنحاء العالم من أسبانيا غرباً إلى الهند والصين شرقاً، كما أشارت وثائق جنيزة القاهرة إلى تلميحات ومعلومات نادرة عن أحوال المدن والبلدان التي يعيشون بين أظهر أهلها من المسلمين والمسيحيين الوثنيين¹¹⁴، مما يؤكد أهمية الاتصال في التجارة الدولية التي احتكرها اليهود، بما يملكون من خبرة في التفاوض، وهم الوسيط في التجارة الدولية كما يقول المؤرخ الاقتصادي موريس لومبار، حيث تجدهم في كل مفترق الطرق الخاصة بالتجارة الدولية، وفي الأندلس المرابطية كانت المجموعة اليهودية النشطة في التجارة الدولية ومعظم الصناعات والحرف المهمة تحت إشراف الخير ابن يامين التُّطَيْلي خلال القرن الثاني عشر. قال بروديل في عمله الكبير: المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني "لقد حُكِمَ على اليهود أن يكونوا كبار حرفيي التبادل، فها هم حتى ما بعد القرن الثالث عشر محترفو نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب وفي القرن السادس عشر كانوا نقلة تقنيات وصناعات كثيرة من الغرب إلى الدولة العثمانية التي حملوا إليها فن صناعة الطباعة، كما كانوا يعيشون حياة الاضطرابات المتلازمة بين المجازر والطرده، كما أن الجماعات اليهودية في الأندلس قد اختلطت واندمجت بالأرستقراطية أكثر من اختلاطهم بالعامية، وكانت وحدتهم الأولية تنصل عن طريق التعليم والعبادة والانتقال الدائم للكعب ورجال الدين.

واليهود لا يشكلون عرقاً وهي حقيقة تاريخية، لأن جماعاتهم موزعة ومرتبطة بيولوجياً بالشعوب التي تقيم في كنفها قرونًا طويلة، وذلك بفعل تمازج الأعراق¹¹⁵ كما كان

¹¹³ كوان، المرجع السابق، ص: 273. ريموند شاينداين، المرجع السابق، ص: 301.

¹¹⁴ كوتستيل، المرجع السابق، ص: 1075.

¹¹⁵ فرنان بروديل، صعود الإمبراطوريات، (مجلة الاجتهاد) بيروت، العدد السادس والعشرون، والسابع والعشرون، السنة السابعة، ربيع العاشر 1415هـ / شتاء 1995م. ص: 258-259. عطا علي ربه، اليهود في بلاد المغرب

يهود الغرب على حدّ تعبير ابن الأثير يُحلمون بيوم الخلاص رغم ما هم عليه من نعيم بالمنطقة قال وفي هذه السنة (487هـ/1084م) في ربيع الآخر رأى بعض اليهود بالغرب رؤيا أنهم سيطيرون فأخبر اليهود بذلك فوهبوا أموالهم وذخائرهم وجعلوا ينتظرون الطيران فلم يطيروا وصاروا ضحكة بين الأمم¹¹⁶. ولا نعدم المعلومات الهامة التي نستقيها من مراسلات يهود الأندلس مع يهود القاهرة، حيث تشير بعض وثائق الجنيزة إلى وصول تجار مشاركة إلى الأندلس وإلى المرية تحديداً ما بين 1138 و1140م حيث تسجل أخباراً عن تجار مسلمين وصنوا الأندلس قادمين من الإسكندرية وليبيا، كما توجد نقوش قبور ثلاثة في نفس المدينة الأندلسية حيث دفن أصحابها في سنوات 519 هـ/1125م و527 هـ/1133م و540 هـ/1145م تشهد على حضور تجاري في النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي¹¹⁷.

خلاصة القول:

إن البحث في وثائق جنيزة القاهرة وما تفرزه سجلات مدن شقوبية (*Ségovia*) وشلمنقة (*Salamanca*) وطرخونة (*Tarragona*) وجزيرة ميورقة عما في مخزونها من مراسلات بين الأسرى وأهاليهم وحكامهم وبينهم وبين السلطات الدينية والسياسية. قد تصحح هذه الوثائق والسجلات والرسائل معلوماتنا عن العلاقات بين الجاليات اليهودية وبقية عناصر المجتمع الأندلسي وبين العناصر الإسلامية وبقية عناصر المجتمعات الغربية في أسبانيا النصرانية وبروفانس وإيطاليا. وأهمية هذه العلاقات تبدو واضحة في العلاقات العامة في المجتمع من خلال وثائق العصر، كما حاولنا تقديمها في هذه المحاولة وتبقى أرضية البحث قائمة؛ قيد التحقيق والتدقيق¹¹⁸.

¹¹⁶ ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء الثامن، ص: 495.

¹¹⁷ كونستيل، المرجع السابق، ص: 1075.

¹¹⁸ لومبار، المرجع السابق، ص: 222.